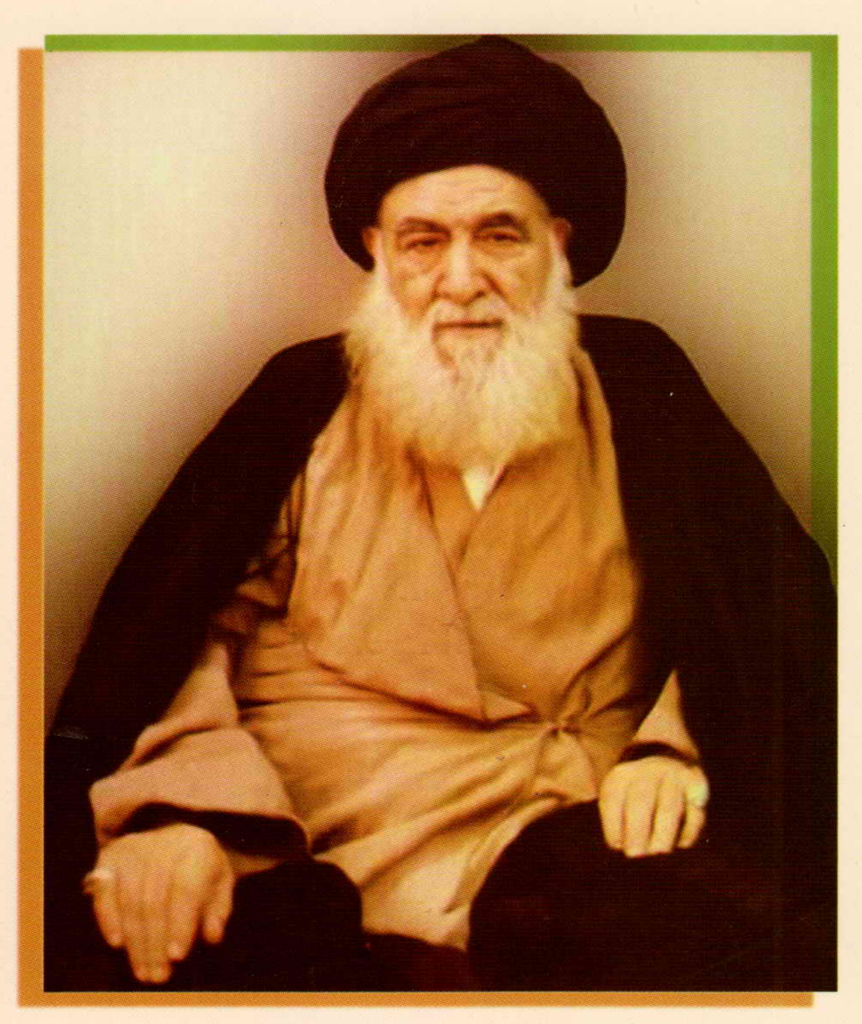
سيرة حياة

الإمام الخوئي (قدس)

دراسة عن حياته العلمية ونشاطاته الفكرية والاجتماعية في إطار الحوزة الدينية



أحمد الواسطي







سيرة حياة

الإمام الخوئيّ (قدس)

الطبعة الأولى

2013 م - 1434هـ

دار الكاتب العربي

إبداع للنشر

سيرة حياة

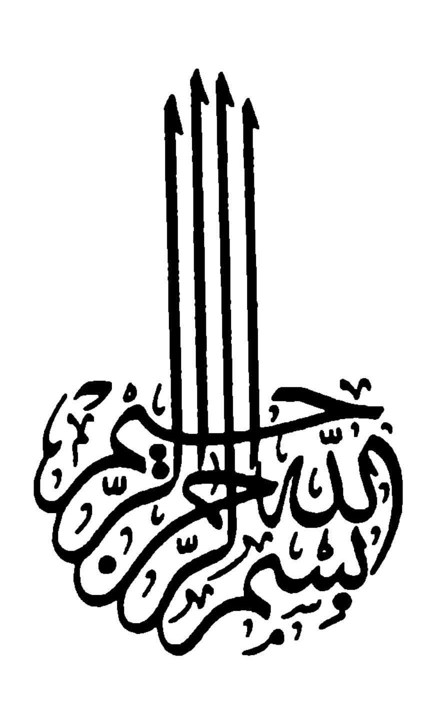
الإمام الخوئي (قدس)

دراسة عن حياته العلمية ونشاطاته الفكرية والاجتماعية في إطار الحوزة الدينية

أحمد الواسطي

دار الكاتب العربي

إبداع للنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ أية أمة لا يمكن أنْ تحافظ على وجودها وتكتسب هويتها وشخصيتها كأمة ما لم يكن وجودها نابعاً من صميم أفكارها، وصورة معبرة عن أهدافها وغاياتها. وبمقدار عمق وشمولية هذه الأهداف والغايات تستحق الأمة وجودها المتميز في التقدير الالهي والموازين الإنسانية، وسيكتب لها البقاء والاستمرار فيها إذا استوعب أبناء الأمة تلك المبادىء والأهداف وجسدوها في سلوكهم الأخلاقي، وواقعهم العملي.

وقادة كل أمة هم القلة الذين تسموا بهم تلك المبادىء إلى درجة الإخلاص والتجرّد ونكران الذات، وفي طليعة هؤلاء بعد الأنبياء وأوصيائهم هم العلماء الربانيون الذين ميّزهم الله عن سائر الناس بعلمهم وإخلاصهم وتفانيهم في رضا الله وإصلاح المجتمع.

والإمام الخوئي (قدس سرّه) الذي عاش قرابة قرن من الزمن، مصداقٌ حيٌّ لهذه المبادىء والقيم، فلم يكن عمره (قدس سره) ملكاً له ولا للحظة واحدة، حيث كان (رض) طيلة ٧٠ ـ ٨٠ عاماً معطاءً لمختلف العلوم الدينية، وحتى بعدما انتهت إليه المرجعية الدينية العليا التي إمتازت بسعة

حدود مقلديها في أقطار العالم المختلفة.

فحياة هذا الإمام الراحل غنية بعطائها، ففي الميدان الفكري يُعدُّ ثروةً في كافة العلوم الإسلامية، فهو الفقيه المتبحِّر، والأصولي المحقق، والمفسر اللوذعي والمؤرخ الثبت والناقد الواعي. وأنّ ما قدمه من عطاء ثرّ ينير للمسلمين مسارات الحياة ويسهم في إثراء رصيدنا الفكري عبر القرون.

وخلال الحرب المفروضة على الجمهورية الإسلامية من قبل النظام العراقي وهي المرحلة الأخيرة من حياته الشريفة الدراسية فقد ضاعف جهوده ونشاطه العلمي ـ رغم تقدمه في الشيخوخة ـ حفاظاً على الحوزة وطلابها من التفكك والإضمحلال بسبب الهجمة الشرسة التي يقوم بها النظام العراقي ضد الحوزات العلمية وعلماء الدين وطلاب الحوزات بهدف محو هذه المؤسسة العلمية الدينية والقضاء على كيانها بعد إفراغها من محتواها.

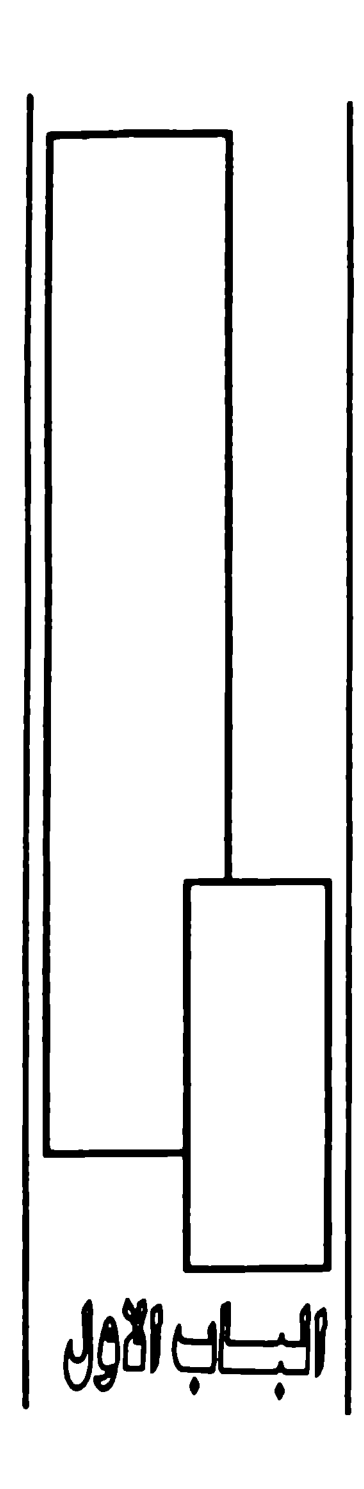
وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى أن الجهد الذي بذله خلال سنوات الحرب الثمانية بلغ ضعف ما كان يبذله في السنوات السابقة للحرب حيث ألغىٰ أيام التعطيل الاعتيادية، وزاد في وقت المحاضرة بنسبة الثلث.

وكان يقول (رحمة الله عليه): «إنّ هذه الحوزة قامت على جماجم العلماء ودماء الشهداء. فيجب أنْ نصونها ونحافظ عليها ولا نسلمها مجاناً لكل مَنْ يريد أنْ ينال منها».

كما كان للإمام الخوئي (قدس سره) باع طويل في الميادين الاجتماعية وتلبية حاجات المعوزّين من فقراء المسلمين وطلاب الحوزات العلمية وغيرهم، فقد كان ينفق الأموال الطائلة على الحوزات العلمية وأساتذتها العلماء وطلابها الذين كان يتكفل في توفير مستلزمات العيش لهم ولعوائلهم من سكن ومعاش إضافة لمؤسساته الخيرية المنتشرة في بلدان العالم ومشاريعه في بناء المستشفيات ودور سكن للأرامل والأيتام والمدارس

والعيادات الطبية والمساعدات المالية لعوائل فقراء المسلمين.

كما كانت للإمام الخوئي مواقف عظيمة في مقارعة الظلم والوقوف بوجه الظالمين والدفاع عن بيضة الإسلام العزيز....



الباب الأول

النشأة والتكوين

هو أبو القاسم بن علي أكبر بن هاشم الموسوي الخوئي (قدس سره الشريف) ولد في بلدة (خوي) من بلاد آذربيجان ليلة ١٥ من شهر رجب سنة ١٣١٧هـ. وقد نشأ في هذه البلدة مع والده وإخوته حيث اتقن القراءة والكتابة وبعض المبادىء الإسلامية، هاجر والده إلى النجف الأشرف ـ بعد حادثة المشروطة ـ سنة ١٣٢٨هـ. والتحق الإمام الخوئي بوالده سنة ١٣٣٠هـ. برفقة أخيه الأكبر المرحوم السيد عبد الله الخوئي وبقية أفراد عائلته. وحين وصوله إلى النجف الأشرف بدأ قراءة العلوم الأدبية والمنطق والكتب الدراسية الأصولية والفقهية. حيث تتلمذ هناك علي يد الكثير من الأعلام منهم السيد المرحوم العلامة الحجة والده (قدس سره)[1] .

---

(١) معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١ الإمام الخوئي «مع التصرف في الصياغة».



الإمام الراحل ووالده واحد اخوانه وبعض الاولاد والاحفاد

ومما يجدر ذكره أن الإمام الخوئي نشأ في جو مشحون بالعداء لقوى الاحتلال الانكليزي وكانت النجف حينئذٍ تعيش في أوج تألقها العلمي لوجود عدد كبير من نوابغ العلماء. ولقد إستفاد من التواجد الفريد والكثيف للعلماء في النجف الأشرف وساعده على ذلك دأبه وطموحه الكبيران وقُدراتٍ منحه إياها الله تعالىٰ لم تتيسر لسواه، فقد قال أحد مؤرخي حياته: «إنّ مزاياه العلمية تكاد تكون نادرة في بابها، عجيبة في ندرتها. ورسوخه في العلم وثبات قدمه في المعارف والفنون واضطلاعه بكثير من العلوم العقلية والنقلية يعجبُ كل إنسان». ومن ظواهر ذلك النبوغ أنه حضر دروس «بحث الخارج» وهو في سن العشرين ثم حضر الدروس العليا على أكابر المدرسين في سنة ١٣٣٨هـ، كان منهم:

١ ـ آية الله الشيخ فتح الله (شيخ الشريعة الأصفهاني).
٢ ـ آية الله الشيخ مهدي المازندراني.
٣ ـ آية الله الشيخ ضياء الدين العراقي.
٤ ـ آية الله الشيخ محمد حسين الأصفهاني.
٥ ـ آية الله الشيخ محمد حسين النائيني.

وكان العالمان الأخيران هما أكثر مَنْ تتلمذ عليهما فقهاً وأصولاً، حيث حضر على كل منهما دورة كاملة في الأصول وعدة كتب في الفقه لسنوات عديدة.

وكان (قدس سره) يقرر بحث كل منهما على جمع من الحاضرين في البحث وفيهم الكثير من الفضلاء. وكان المرحوم النائيني آخر أستاذ لازمه الإمام الخوئي. أما في الرواية فقد أُجيز من عدة مشايخ أن يروى عنهم كتب الإمامية وغيرها، لذا فقد روى بعدة طرق الكتب الأربعة (الكافي ـ الفقيه ـ التهذيب ـ الاستبصار) والجوامع الأخيرة (الوسائل ـ البحار ـ الوافي) وغيرها من كتب أصحابنا، ومن تلك الطرق ما كان يرويه (قدس سره) عن الشيخ

النائيني وعن الشيخ النوري بطرقه المحرّرة في خاتمة (مستدرك الوسائل) المعروفة بـ (مواقع النجوم) المنتهية إلى أهل بيت العصمة عليهم السلام[1]

تلامذة الإمام الخوئي (قدس سره):

تمكن الإمام الراحل من إعداد نخبة كبيرة من العلماء والمجتهدين تميّزت بالعلم والتقوىٰ وفيما يلي أُشير إلى أبرزهم[2].

السيد محمد باقر الصدر.

السيد علي بهشتي.

السيد علي السيستاني.

السيد تقي القمي.

السيد جلال الدين الفقيه إيماني.

الشيخ علي فلسفي.

السيد محمد علي موحد الأبطحي.

الشيخ حسن صافي الأصفهاني.

الشيخ الجعفري الأراكي.

الشيخ مصطفىٰ الأشرفي.

الشيخ كاظم التبريزي.

الشيخ ميرزا علي الغروي.

الشيخ كاظم التبريزي.

الشيخ حسين الوحيد الخراساني.

السيد محمد تقي الحكيم.

---

(١) معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١ الإمام الخوئي «مع التصرف في الصياغة». .

(٢) ترتيبنا لأسماء السادة العلماء لم يخضع لأية إعتبارات.

الشيخ محمد إسحاق فيّاض.
الشيخ مرتضىٰ البروجردي.
الشيخ علي أصغر الأحمدي.
الشيخ ميرزا علي الفلسفي.
الشيخ محمد تقي الإيرواني.
السيد أبو القاسم الكوكبي.
الشيخ ميرزا جواد التبريزي.
السيد طيب الجزائري.
الشيخ أحمد قصير العاملي.
الشيخ مصطفىٰ الهرندي.
السيد محمد الشاهرودي.
السيد محمد مهدي الحكيم.
السيد جمال الدين الخوئي.
السيد محمد حسين فضل الله.
الشيخ هادي آل راضي.
السيد كاظم الحائري.
الشيخ ميرزا يوسف الإيرواني.
السيد محمد حسين الحكيم.
الشيخ محمد مهدي شمس الدين.
الشيخ محمد علي المدرس الأفغاني.
السيد علاء الحكيم.
السيد موسىٰ الصدر.
السيد هاشم معروف الحسني.
الشيخ محمد إبراهيم الجناتي.
الشيخ مفيد الفقيه.

الشيخ باقر الإيرواني.
السيد محمود الهاشمي.
الشيخ باقر القرشي.
الشيخ محمد مهدي الأصفي.
الشيخ عبد الأمير قبلان.
السيد إبراهيم الأمين.
الشيخ عبد الكريم الأردبيلي.
الشيخ عبد الهادي الفضلي.
السيد مرتضىٰ العاملي.
الشيخ محمد أمين زين الدين.
السيد محمد باقر الحكيم.
السيد عبد الكريم القزويني.
الشيخ جعفر آل محبوبة.
الشيخ بشير الباكستاني.
الشيخ محمد جواد مغنية.
الشيخ أحمد البهادلي.
السيد جواد شبّر.
السيد فاضل الميلاني.
السيد عبد الرزاق المقرم.
السيد إبراهيم علم الهدىٰ.
السيد عبد الله الغريفي.
السيد محمد تقي الخوئي.
السيد محمد رضا الخرسان.
السيد محمد مهدي الخرسان.
الشيخ محمد تقي الجعفري.

السيد مهدي المرعشي.

السيد محمد باقر المصطفوي.

الشيخ محمد حسين الجزيري الإحسائي.

الشيخ ميرزا محمود الأنصاري.

الشيخ عباس النائيني.

الشيخ عبد المنعم الفرطوسي.

الشيخ عبد الحسين الخراساني.

الشيخ عباس النائيني.

السيد حسن الهندي.

السيد محمد جعفر الكهنوي.

الشيخ أبو الفضل الخونساري.

الشيخ جعفر النائيني.

الإمام الخوئي والتدريس:

كان للإمام الخوئي دورٌ كبير وفعّال في مجال التدريس في الحوزات العلمية فقد ألقىٰ على مسامع الطلبة محاضرات في الفقه والأصول والتفسير فتتلمذ على يديه خيرة طلبة الحوزة العلمية في النجف الأشرف، كما كان له الأثر المباشر على إغناء الحصيلة العلمية والفكرية لدىٰ طلاب العلم الذين يفدون إلى النجف من كافة المدن التي تعتنق فكر أهل البيت عليهم السلام. حيث يستمعون إلى محاضراته القيمة في العلوم التي إعتاد إلقاءها على روّاد مجالسه وحلقاته الدارسية فمن بين المحاضرات التي كان يدّرسها، محاضرات في الفقه (بحث خارج) دورتين كاملتين لمكاسب الشيخ الأنصاري، ودورتين كاملتين لكتاب الصلاة. وفروع العروة الوثقىٰ للسيد محمد كاظم اليزدي. ومحاضرات في الأصول (بحث خارج) ست دورات كاملة وقد حالت مشاغل المرجعية دون إكماله للدورة السابعة منها، أما

تفسير القرآن فقد شرع في تدريسه برهة من الزمن إلا أن الظروف التي واجهها منعته من الاستمرار في تدريسه[1] .

وتجدر الإشارة إلى ان حياة الإمام كانت حافلة بمواصلة الدرس والتدريس باستثناء بعض التوقفات التي كانت بسبب الضرورات التي منها تشرفه بحج بيت الله الحرام عام ١٣٥٣هـ. وزيارة مرقد الإمام الرضا عليه السلام عام ١٣٥٠ وعام ١٣٦٨هـ.

أمّا دروسه ومحاضراته في الفقه والأصول والتفسير فقد قام أفاضل طلابه وتلامذته بتقريرها. . . .

آثاره العلمية المقررة[2] :

ترك الإمام الخوئي نتاجات علمية خالدة في الفقه والأصول والتفسير، تعبّر عن باعه الطويل وتخصصه في علوم أهل البيت عليهم السلام ، وهي كما يلي:

١ ـ تنقيح العروة الوثقىٰ	٦ أجزاء.
٢ ـ دروس في فقه الشيعة	٤ أجزاء.
٣ ـ مستند العروة	جزءان والثالث تحت الطبع.
٤ ـ فقه العترة	جزء واحد والثاني تحت الطبع
٥ ـ تحرير العروة	جزء واحد.
٦ ـ مصباح الفقاهة	٣ أجزاء.
٧ ـ محاضرات في الفقه الجعفري	جزءان.
٨ ـ الدرر الغوالي في فروع العلم الإجمالي.	جزء واحد.

---

(١) معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١ الإمام الخوئي (بتصرف في الصياغة).
(٢) معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١ الإمام الخوئي «بتصرف في الصياغة» .

٩ ـ محاضرات في أصول الفقه.

دورة كاملة طبع منها أصول.

١٠ ـ مصباح الأصول جزءان.

١١ ـ مباني الاستنباط جزءان.

١٢ ـ دراسات في الأصول العملية جزء واحد.

١٣ ـ مصابيح الأصول جزء واحد.

١٤ ـ جواهر الأصول جزء واحد.

١٥ ـ الأمر بين الأمرين جزء واحد.

١٦ ـ الرأي السديد في الاجتهاد والتقليد جزء واحد.

١٧ ـ رسالة في تحقيق الكر جزء واحد.

١٨ ـ رسالة في حكم أواني الذهب.

مؤلفاته[١] :

ألف السيد الخوئي (رحمة الله عليه) العديد من النتاجات العلمية في التفسير والفقه والأصول والرجال وفيما يلي مجموعة من هذه النماذج حيث طبع بعضها ولا يزال البعض الآخر مخطوطاً:

١ ـ البيان في تفسير القرآن جزء واحد.

٢ ـ أجود التقريرات جزءان.

---

(١) معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١ الإمام الخوئي «بتصرف في الصياغة».

٣ ـ تكملة منهاج الصالحين جزء واحد.

٤ ـ مباني تكملة منهاج الصالحين جزءان.

٥ ـ تهذيب وتتميم منهاج الصالحين جزءان.

٦ ـ المسائل المنتخبة جزء واحد.

٧ ـ مستحدثات المسائل جزء واحد.

٨ ـ تعليقة على العروة الوثقىٰ جزء واحد.

٩ ـ رسالة في اللباس المشكوك جزء واحد.

١٠ ـ نفحات الاعجاز (الدفاع عن كرامة القرآن) جزء واحد.

١١ ـ منتخب الرسائل جزء واحد.

١٢ ـ تعليقة على المسائل الفقهية جزء واحد.

١٣ ـ تعليقة على توضيح المسائل جزء واحد.

«طبعت مستقلة ثم أدرجت في المثنىٰ».

١٤ ـ منتخب توضيح المسائل جزء واحد.

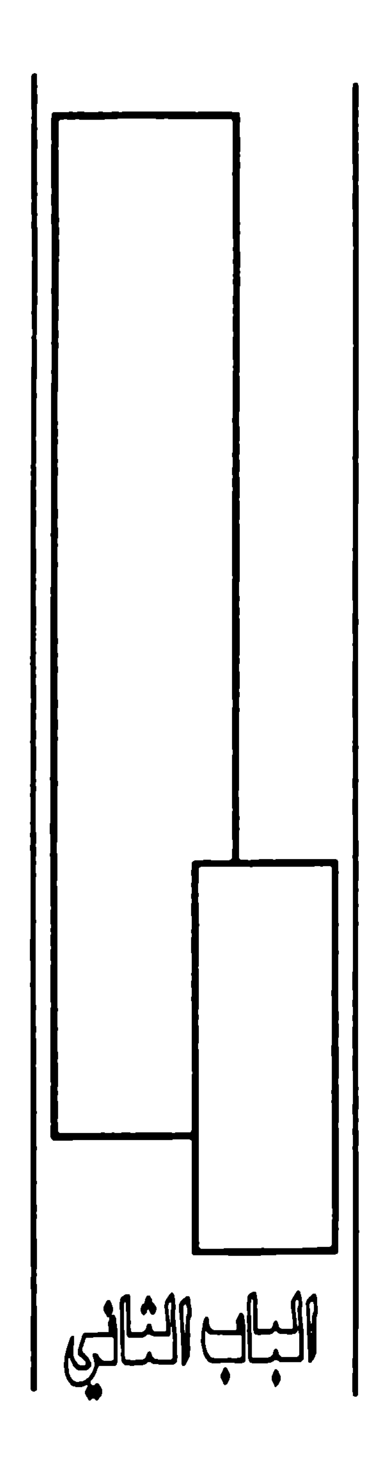
١٥ ـ تلخيص المنتخب جزء واحد.

١٦ ـ مناسك الحج (عربي) جزء واحد.

١٧ ـ مناسك الحج (فارسي) جزء واحد.

١٨ ـ تعليقة على المنهج لأحكام الحج جزء واحد.

١٩ ـ معجم رجال الحديث ٢١ جزء.



الباب الثاني

الوحدة الإسلامية في فكر الإمام الخوئي

تناول كتاب (البيان في تفسير القرآن) للإمام الخوئي نقاطاً عديدة بالتوضيح والبيان وأولىٰ هذه النقاط موضوع إعجاز القرآن وحقيقته وتحديداته الأمر الذي تقوم عليه معالم الإسلام من جهة، وينتهي عنده أمد الرسالات الأُخرىٰ من جهة ثانية.

فإعجاز القرآن قاعدة داخلية تبنىٰ عليها رسالة خالدة، ونبوّة عامة هي خاتمة النبوّات، وقاعدة كبرىٰ نعتمدها في الدفاع عن هذه الرسالة والقضاء على ما يناهضها من رسالات محرّفة، ومن شبهات وطعن يتذرع بها خصوم الإسلام.

ولأهمية هذا الموضوع حاول الكتاب عرض ما في القرآن من معارف وعلوم وأسرار تشريعية وكونية تمثل ـ هي الأُخرىٰ ـ أهم ناحية من نواحي إعجاز القرآن بالإضافة إلى ما عرضه من إعجازه في الأسلوب، وعجز البشرية عن مجاراته ومحاكاته في قليل أو كثير ويقول الإمام الخوئي في هذا الصدد:

«وإذ قد عرفت أن القرآن معجزة إلهية في بلاغته وأُسلوبه فاعلم أنّ إعجازه لا ينحصر في ذلك، بل هو معجزة ربانية، وبرهان صدق على نبوَّة من

أُنزل عليه من جهات شتىٰ فيحسن بنا أن نتعرض إلى جملة منها على نحو الإختصار.

منها: القرآن والمعارف: صرّح الكتاب في كثير من آياته الكريمة بأن محمد ﷺ: أمي، وقد جهر النبي بهذه الدعوىٰ بين ملأ من قومه وعشيرته الذين نشأ بين أظهرهم وتربىٰ في أوساطهم، فلم ينكر أحد عليه هذه الدعوىٰ، وفي ذلك دلالة قطعية على صدقه فيما يدّعيه. ومع أميته فقد أتىٰ في كتابه من المعارف ما أبهر عقول الفلاسفة وأدهش مفكري الشرق والغرب منذ ظهور الإسلام إلى هذا اليوم وسيبقىٰ موضعاً لدهشة المفكرين وحيرتهم إلى اليوم الآخر، وهذا من أعظم نواحي الإعجاز»[1].

فالإمام الخوئي (رحمة الله عليه) ينازل بهذا الاسلوب خصوم الإسلام ويدحض مفترياتهم على القرآن. وفي ذلك هزيمة لخصوم الإسلام وتقارب بين طوائف المسلمين.

وقد عالج في موضوع إعجاز القرآن نقطة أُخرىٰ هي: ميّزة الخلود والبقاء الأبدي لكتاب الله العزيز دون أن تمسه يد التحريف أو الزيادة والنقص وردّه عن نفسه شبهات أعداء الإسلام وتفنيد شكوكهم وافتراءاتهم بتناقض المعاني واختلاف المضامين لكي يثبتوا بأنه ليس من عند الله ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً**﴾ ويهدف الأعداء والخصوم من وراء ذلك إفراغ القرآن وبالتالي الدين الإسلامي من المحتوىٰ الاعجازي الخالد للقرآن الكريم مما يجرّ إلى تكذيب نبوّة خاتم الأنبياء ﷺ. وهذا ديدن قديم كان ينساق وراءه أمة أو أمم قد خلت منذ عصر البعثة وإلى يومنا هذا.

كما يمتاز هذا الكتاب بمحاولته لمناهضة المنازعات المذهبية التي

(١) البيان في تفسير القرآن. الخوئي ص: ٥٦.

جعلت من القرآن مسرحاً لها، مع أنّ آياته إنما جاءت هدىً للناس ورحمة، . تدعوهم إلى التوحيد والتمسك بحبل الله ونبذ التفرقة التي ينشدها أعداء المسلمين. وهي محاولة تستهدف وحدة المسلمين والدعوة إلى التقارب بينهم عن طريق العلم وحلّ المسائل الخلافية بالحكمة والبرهان، وهي محاولة يسعىٰ إليها في كل ما عقده من أبحاث موضوعية حول القرآن، ومن تلك الأبحاث. بحث «صيانة القرآن من التحريف» حيث قال رحمه الله :

(المعروف بين المسلمين عدم وقوع التحريف في القرآن وأن الموجود بأيدينا هو جميع القرآن المنزل على النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وقد صرّح بذلك كثير من الأعلام منهم رئيس المحدثين الصدوق محمد بن بابويه. وقد عدَّ القول بعدم التحريف من معتقدات الإمامية، ومنهم شيخ الطائفة أبو جعفر محمد الطوسي وصرّح بذلك في أول تفسيره «البيان» ونقل القول بذلك أيضاً عن شيخه علم الهدىٰ السيد المرتضىٰ واستدلاله على ذلك بأتمّ دليل. . ومنهم المفسّر الشهيد الطبرسي في مقدمة تفسيره مجمع البيان، ومنهم شيخ الفقهاء، الشيخ جعفر في بحث القرآن من كتابه «كشف الغطاء» وادعىٰ الإجماع على ذلك. ومنهم العلاّمة الجليل الشهشهاني في بحث القرآن من كتابه «العروة الوثقىٰ» ونسب القول بعدم التحريف إلى جمهور المجتهدين. ومنهم المحدِّث الشهير المولىٰ محسن القاساني في كتابيه «الوافي» ج٥/ ٢٧٤ و« علم اليقين» ص١٣٠ ومنهم بطل العلم والمجاهد الشيخ محمد الجواد البلاغي في مقدمة تفسيره «آلاء الرحمن» وقد نسب جماعة القول بعدم التحريف إلى كثير من الأعاظم، منهم شيخ المشايخ المفيد، والمتبحّر الجامع الشيخ البهائي، والمحقق القاضي نور الله وأضرابهم.

وممن يظهر منه القول بعدم التحريف: كل من كتب في الإمامة من علماء الشيعة وذكر فيه المثالب، ولم يتعرّض للتحريف، فلو كان هؤلاء قائلين بالتحريف لكان ذلك أولىٰ بالذكر من إحراق المصحف وغيره.

وجملة القول: إنّ المشهور بين علماء الشيعة ومحققيهم، بل المتسالم عليه بينهم هو القول بعدم التحريف.

نعم ذهب جماعة من المحدثين من الشيعة، وجمع من علماء أهل السنة إلى وقوع التحريف، قال الرافعي: فذهبت جماعة من أهل الكلام ممن لا صناعة لهم إلاّ الظن والتأويل واستخراج الأساليب الجدلية من كل حكم وقول إلى جواز أن يكون قد سقط عنهم من القرآن شيء، حملاً على ما كان من كيفية جمعه[1].

وقد نسب الطبرسي في مجمع البيان هذا القول إلى الحشوية من العامة. «ومن الشبهة» أن علياً عليه السلام كان له مصحف غير المصحف الموجود، وقد أتىٰ به القوم فلم يقبلوا منه، وأن مصحفه عليه السلام كان مشتملاً على أبعاض ليست موجودة في القرآن الذي بأيدينا، وترتب على ذلك نقص في القرآن الموجود عن مصحف أمير المؤمنين علي عليه السلام وهذا هو التحريف الذي وقع الكلام فيه والروايات الدالة على ذلك كثيرة، منها: ما في رواية احتجاج علي عليه السلام على جماعة من المهاجرين والأنصار أنه قال: «يا طلحة إن كلّ آية أنزلها الله تعالىٰ على محمد صلى الله عليه وآله عندي بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي، وتأويل كل آية أنزلها الله تعالىٰ على محمد صلى الله عليه وآله وكلّ حلال أو حرام، أو حدٌّ أو حكم، أو شيء تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة فهو عندي مكتوب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وخط يدي حتى أرش الخدش...»[2]. ومنها ما في احتجاجه عليه السلام على الزنديق من أنه: «أتىٰ بالكتاب كملاً مشتملاً على التأويل والتنزيل والمحكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ ولم يسقط منه حرف ألف ولا لام فلم يقبلوا ذلك»[3]

(١) إعجاز القرآن ص٤١.
(٢) مقدمة تفسير البرهان ص٢٧.
(٣) تفسير الصافي ـ المقدمة السادسة ص١١.

الجواب عن ذلك: إن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما ـ لا ينبغي الشك فيه، وتسالم العلماء الأعلام على وجوده أغنانا عن التكليف لإثباته، كما أن اشتمال قرآنه عليه السلام زيادات ليست في القرآن الموجود، وان كان صحيحاً إلاّ أنه لا دلالة في ذلك على أن هذه الزيادات كانت من القرآن وقد أسقطت منه بالتحريف، بل الصحيح أن تلك الزيادات كانت تفسيراً بعنوان التأويل وما يؤول إليه الكلام، أو بعنوان التنزيل من الله شرحاً للمراد.

وان هذه الشبهة مبينة على أن يراد من لفظي التأويل والتنزيل ما اصطلح عليه المتأخرون من إطلاق لفظ التنزيل على ما نزل قرآناً، وإطلاق لفظ التأويل على بيان المراد من اللفظ، حملاً له على خلاف الظاهر، الا أن هذين الاطلاقين من الاصطلاحات المحدثة، وليس لهما في اللغة عين ولا أثر ليحمل عليهما هذان اللفظان (التنزيل والتأويل) متى وردا في الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، وإنما التأويل في اللغة مصدر مزيد فيه وأصله (الأول ـ بمعنىٰ الرجوع) ومنه قولهم «أوّل الحكم إلى أهله، أي: ردّه إليهم».

وقد يستعمل التأويل ويراد منه العاقبة وما يؤول إليه الأمر. وعلى ذلك جرت الآيات الكريمة: ﴿ويُعَلِّمُكَ من تأويل الأحاديث﴾ ١٢: ٦ ﴿نبّئنا بتأويله﴾ : ٣٦. ﴿هذا تأويل رؤياي﴾ ١٠٠ ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ ١٨: ٨٢ وغير ذلك من موارد استعمال هذا اللفظ في القرآن الكريم. وعلى ذلك فالمراد بتأويل القرآن، ما يرجع إليه الكلام، وما هو عاقبته سواء أكان ذلك ظاهراً يفهمه العارف باللغة العربية أم كان خفياً لا يعرفه إلاّ الراسخون في العلم.

وأما التنزيل فهو أيضاً مصدر فريد فيه وأصله النزول، وقد يستعمل ويراد به ما نزل من هذا القبيل إطلاقه على القرآن في آيات كثيرة منها:

قوله تعالىٰ: ﴿إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يَمسُّه إلاّ المطهرون * تنزيل من رب العالمين﴾ وعلى ما ذكرناه فليس كل ما نزل من الله وحياً يلزم أن يكون من القرآن، فالذي يستفاد من الروايات في هذا المقام أنّ مصحف علي عليه السلام كان مشتملاً على زيادات تنزيلاً أو تأويلاً، ولا دلالة في شيء من هذه الروايات على أنّ تلك الزيادات هي من القرآن. وعلى ذلك يُحمل ما ورد من ذكر أسماء المنافقين في مصحف علي عليه السلام فإن ذكر اسمائهم لا بد وأن يكون بعنوان التفسير.

والاسرار بما يعلمه من نفاقهم، وهذا واضحٌ لمن له أدنىٰ إطلاع على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وحسن أخلاقه فكيف يمكن أن يذكر اسماءهم في القرآن ويأمرهم بلعن أنفسهم، ويأمر سائر المسلمين بذلك ويحثهم عليه ليلاً ونهاراً. وهل يحتمل ذلك حتى ينظر في صحته وفساده أو يتمسّك في إثباته بما في بعض الروايات من وجود اسماء جملة من المنافقين في مصحف علي عليه السلام وهل يقاس ذلك بذكر أبي لهب المعلن بشركه ومعاداته للنبي صلى الله عليه وآله مع علم النبي بأنه يموت على شركه. نعم لا بد من ذكر النبي صلى الله عليه وآله أسماء المنافقين لبعض خواصه كأمير المؤمنين عليه السلام وغيره في مجالسه الخاصة.

وحاصل ما تقدم أن وجود الزيادات في مصحف علي عليه السلام وإن كان صحيحاً، إلاّ أنّ هذه الزيادات ليست من القرآن، ومما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بتبليغه إلى الأمة فإن الالتزام بزيادة مصحفه بهذا النوع من الزيادة قولٌ بلا دليل، مضافاً إلى أنه باطل قطعاً، ويدل على بطلانه جميع ما تقدم من الأدلة القاطعة على عدم التحريف في القرآن»[1].

لقد خطىٰ الإمام الخوئي في هذا الكتاب خطوة علمية استهدف فيها أن

(١) البيان في تفسير القرآن ـ الخوئي ص٢١٨.

يؤطِّر المسلمين ضمن تشريع قرآني موحّد في أمّهات المسائل والأحكام. . وهي تلك النماذج التشريعية التي انتهى في كل واحدة من آياتها إلى نهاية علمية لا غبار عليها، كما أثبت كثيراً من معالم الشريعة التي أخفاها السلف بحجةِ أن كثيراً من الآيات عطّلتْ أحكامها آياتٌ أُخرىٰ، وتحددتْ استمراريتها بحكم نسخ الكتاب أو السنة أو الاجماع.

وقد عالج الإمام الآيات واحدة، واحدة ونفىٰ أن يكون فيها أو بعضها ناسخ من الكتاب أو السنة. كما أنكر أن يكون بين هذه الآيات المفروضة النسخ غير ما فيها من عموم وخصوص أو مطلق ومقيد أو بائن لا تنظر إحداهن إلى الأُخرىٰ. بحال من الأحوال مع أنه لم يتجاهل أن يكون بينها نسخ جزئي، بمعنىٰ أن تكون احدىٰ هذه الآيات مقيدة أو مخصصة لآية أُخرىٰ لها صفة الشمول. وهذه الخطوة - بالذات - قد أحيت لنا كثيراً من التشريعات التي أماتها هذا النسخ المُدَّعىٰ، وكان الأحرىٰ بنا أن نعمل على وفقها في مختلف الظروف، وقد أوضح كل ذلك بتفصيل دقيق في بحث «النسخ في القرآن» ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ﴾ ٢ : ٢٢١ فادّعىٰ بأنها منسوخة بقوله تعالىٰ: ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن﴾ ٥ : ٥ ذهب إليه ابن عباس ومالك بن أنس وسفيان بن سعيد، وعبد الرحمان بن عمر، والأوزاعي، ذهب عبد الله بن عمر إلى أن الآية الثانية منسوخة بالآية الأولى، فحرّم نكاح لكتابيـة[1].

والحق أنه لا نسخ في شيء من الآيتين فإنّ المشركة التي حرّمت الآية لأولىٰ نكاحها إن كان المراد منها التي تعبد الأصنام والأوثان (كما هو ظاهر) فإنّ حرمة نكاحها لا تنافي إباحة نكاح الكتابية التي دلّت عليها الآية

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٥٨.

الثانية لتكون إحداهما ناسخة والثانية منسوخة.

وإن كان المراد من المشركة ما هو أعم من الكتابية (كما توهمه القائلون بالنسخ). كانت الآية الثانية مخصصة للآية الأولىٰ ويكون حاصل معنىٰ الآيتين جواز نكاح الكتابية دون المشركة. نعم المعروف بين علماء الشيعة الإمامية أن نكاح الكتابية لا يجوز إلا بالمتعة إما لتقييد إطلاق آية الإباحة بالروايات الدالة على تحريم النكاح الدائم، وإما لدعوىٰ ظهور الآية الكريمة في المتعة دون العقد الدائم ـ ونقل عن الحسن والصدوقين جواز الدائم أيضاً.

كما وضع رحمه الله منهاجاً دقيقاً في تفسير القرآن بالاستعانة على كثير من المبادىء والعلوم وأقام أُسس منهجه على تفسير القرآن بالقرآن، وفهم الآية من أختها أو بواسطة آية أُخرىٰ وقد اعتبر الوسيلة إلى ذلك ظاهر اللفظ ومعاضدة العقل الصحيح والاعتماد على السنة القطعية أو المعتبرة.

وبهذا فقد وقف إمام التفسير بالرأي والتعسف في التأويل والأخذ بالظنون والروايات المختلفة والشواهد المهلهلة وما إلى ذلك من الوجوه.

ولهذا نجده يقول: «التفسير هو إيضاح مراد الله تعالىٰ من كتابه العزيز فلا يجوز الاعتماد فيه على الظنون والاستحسان ولا على شيءٍ لم يثبت أنه حجة من طريق العقل أو من طريق الشرع للنهي عن إتباع الظن وحرمة إسناد شيءٍ إلى الله بغير إذنه، حيث قال الله تعالىٰ: ﴿قل آلله إذنَ لكم أم على الله تفترون﴾ ١٠ : ٥٩ وقال تعالىٰ: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾ ١٧ : ٣٦ إلى غير ذلك من الآيات والروايات الناهية عن العمل بغير العلم، والروايات الناهية عن التفسير بالرأي مستفيضة من الطريقين».

ومن هذا يتضح أنه لا يجوز إتباع أحد المفسرين في تفسيره سواء أكان ممن حسن مذهبه أم لم يكن، لأنه من أتباع الظن وهو لا يغني من الحق شيئاً، ولا بد للمفسر من أن يتبع الظواهر التي يفهمها العربي الصحيح «فقد

بينا لك حجيّة الظواهر» أو يتبع ما حكم به العقل الفطري الصحيح فانه حجة من الداخل كما أن النبي حجة من الخارج»[1] .

وفي الختام نقول إن هذا التفسير الفريد وإن لم يتجاوز فاتحة الكتاب إلاّ أنه سيظل منهجاً نموذجياً يهتدي به كل مفسر يستهدف فهم القرآن فهماً ذاتياً منبعه القرآن وهو يفسّر كلام الله المنزل الذي دلّ على ذاته بذاته .

(١) البيان في تفسير القرآن ص٤٢١ .

نماذج من السيرة التقريبية للفقيه الإمام الخوئي «قدس سره»[1]

النموذج الأول: على عهد جمال عبد الناصر أقيم في القاهرة مؤتمر للفقهاء المسلمين دُعي إليه بعض فقهاء الشيعة الإمامية، ومن النجف الأشرف الإمام الخوئي، فعرض هو بدوره الدعوة على العلامة محمد تقي الحكيم صاحب «الأصول العامة للفقه المقارن» فاستجاب الدعوة بالنيابة عن الإمام الخوئي. وكان من نتائج هذا المؤتمر على ما حكي في وقته: أنّ كان من مقررات المؤتمر، الاقتصار في أقصىٰ مدة الحمل على فتوىٰ المذهب الجعفري «سنة» فحسب، ورفع اليد عن الفتاوى المختلفة لسائر المذاهب الإسلامية والتي تصل في أقصاها إلى «سبع سنين» وعدم إصدار حكم أو قضاء أو فتوىٰ وفق ما سبق وذلك لعدم مساعدة العلم على ذلك.

النموذج الثاني: كان الإمام الخوئي يلقي دروسه الاختصاصية الاجتهادية العليا في الفقه وأصوله في جامع الخضراء بجانب صحن الإمام

(١) مذكرات سماحة الشيخ حجة الإسلام محمد هادي اليوسفي.

أمير المؤمنين عليه السلام وذات يوم حضر المسجد قارىء بغدادي واقترح على الإمام الخوئي أن يتقدم قبل درسه بتلاوة آيات من القرآن الكريم فرحبّ الإمام بذلك، فقرأ الرجل آية الكرسي إلى قوله سبحانه ﴿وهو العلي العظيم﴾ ثم ختم فقال: صدق الله العظيم فلما نزل ألفت الإمام الخوئي نظر القارىء إلى أن الآية وصفتْ الله بالعلي العظيم، فلماذا ينقص هو إحدىٰ الصفتين ويبخل، بها على الله وإنما يذكر الأخرىٰ؟!

الحوزة العلمية ودورها الريادي في التاريخ

يعود تاريخ الحوزة العلمية كجامعة للدراسات الإسلامية إلى العام ٤٤٨هـ ١٠٥٦م وهو التاريخ الذي دخل فيه الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي مدينة النجف، على أنّ بعض الباحثين يرى أن مدينة النجف لم تكن تخلو من العلم والتجمعات العلمية قبل مجيء الشيخ الطوسي إلاّ أنه يمكن القول:

إنّ العلم أخذ بالإزدهار في عصره، ومما يجدر ذكره أن عملية تلقي العلوم الدينية في النجف قد بدأت منذ القرن الثالث الهجري ووصلت إلى أوج إزدهارها في عهد عضد الدولة أحد الملوك البويهيين، حيث فسح المجال لرجال العلم المقيمين في النجف[١]، غير أن الدراسات العلمية قد أخذت طابعها المنهجي على يد الشيخ الطوسي الذي ـ وكما تذكر المصادر ـ كان أول من فتح باب التدريس على طريقة الاجتهاد المتبعة اليوم في النجف، وهو أولُ مَنْ جمع من علماء النجف بين الحديث والفقه والأصول في مؤلفاته، وأوجد هيئة علمية ذات حلقات ومنذ ذلك الحين أخذت تَفِدُ على

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٨/ ٣٣٤.

مدينة النجف أعداد كبيرة من طلاب العلم، ويذكر الشيخ محمد حسين المظفر إن عدد طلاب مدرسة النجف قبل الإحتلال الانكليزي للعراق يقدّر بنحو عشرة آلاف طالباً[1].

ويذهب بعض الباحثين إلى أنّ حوزة النجف هي إمتداد لمدرسة الكوفة العلمية التي شيّدها الإمام علي عليه السلام وبلغت ذروتها في عهد الإمام الصادق عليه السلام.

ولم تكتسب الحوزة العلمية مكانتها في تاريخ الفكر الإنساني الشيعي بوصفها جامعة كبرىٰ لتلقي العلوم الدينية وحسب فهي بالإضافة إلى دورها في إعداد وتهيئة الكوادر العلمية المتخصصة في علوم الدين تعتبر مركز الجهاز المرجعي العام الذي به يقود المرجع الأمة. وبواسطة مجموعة من أساتذتها الكبار والكوادر الإدارية والخطابية فيها تتم عملية توجيه موقف الأمة الديني، ولا تقوم الحوزة بدورها العلمي هذا بمعزل عن الأحداث والمتغيرات الاجتماعية والسياسية التي تعصف بالمجتمع الإسلامي، أي أنّ تلقي العلوم الدينية وتربية جيل من العلماء الدينيين لم يكن شاغلها الوحيد فهي تسعىٰ إلى وضع منهجية لها أثرها في بناء شخصية الطالب فكرياً وقيادياً، وعلى سبيل المثال أنّ «الزعامة الإسلامية في الفتيا والتدريس والإدارة في النجف لا ترتبط بأي جهة سياسية مهما كان شكلها وإمكانيات الفقيه الشخصية من فكرية وقيادية هي التي تخوله تسنم هذه المكانة الرفيعة من الحوزة والوطن الإسلامي، حيث لا يُعين المرجع بمرسوم من مصدر رسمي ولا تأتيه هذه المكانة بطريقة الانتخاب من فئة معينة سياسيّة كانت أو حزبية وليس للدولة والجهاز الحاكم بها أي دخل في تعيينه[2] أو عزله، ولقد

---

(١) الكامل لابن الأثير.

(٢) النجف، جامعاتها ودورها القيادي: علي البهادلي ١٥/ ٨٩ بيروت.

واصلت الحوزة العلمية دورها الريادي والتوجيهي، وأن الثقل المحوري لهذا الدور يتغير وفقاً لتغيرات المرحلة. وفي القرن الحالي حيث تعددت أشكال الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، تعددت جهود المرجعية وإساليبها بين الفكر والسياسة والجهاد والفقه، ولقد كان الإمام الخوئي أحد أكابر المراجع الشيعية التي تركت بصماتها على النظام الحوزوي وعلومه وتخصصاته، وبفقدانه تكون هذه الحوزة ـ وفي المرحلة الراهنة ـ قد تعرضت إلى خسارة هائلة، وإلى امتحان عسير لما للإمام الراحل من دور زعامي لا يمكن ملء فراغه إلاّ عبر جهود استثنائية ومشتركة للعلماء والمراجع العظام.

كتب أحد العلماء في عام ١٩٥٠م مقالاً عن الإمام الخوئي(قدس سره) قال فيه: «هو من أبرز العلماء والمراجع العليا الشهيرين، نال المرجعية في التقليد وحاز التفرد في التدريس وجمع بين أصناف العلم وقرن بين العلم والتقوىٰ، وهو ممن لا نظير لجامعيته إلاّ في السلف الصالح من أساطين علمائنا وأعلام رجالنا».

وقال أيضاً: «إن السيد الخوئي بلغ الإنفراد في التدريس بفضل علمه وبيانه وجمع بين أصناف العلوم وشدّة إنكبابه على الاطلاع والتتبع، وقرن بين العلم والتقىٰ لأخذه بالعمل الصالح من وراء العلم، وتمسكه باتباع خطوات الدين[١].

علماؤنا ومدرسة أهل البيت عليهم السلام:

يمثل الإمام الخوئي (قدس سره) حلقة من حلقات القيادة الشرعية ورمزاً من رموز مدرسة أهل البيت عليهم السلام تلك المدرسة التي وضع أسسها رسول الله صلى الله عليه وآله وشخصها الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولم نجد مدرسة فكرية إلاّ وضعفت بتعاقب الزمان عليها إلاّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام

(١) مجلة الموسم العدد ٦.

التي كانت كلما تطاولت القرون عليها زادتها أصالة وتجذراً في نفوس وضمائر أتباعها وفرضت على كل المسلمين إحترامها.

لذلك لا يمكن أن نتناول شخصية الإمام الخوئي دون أن نفهم المنبع الذي نهل منه فقيدنا المعظم ونعلم الموقع الذي حدده الإسلام للفقيه.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم إرحم خلفائي، قيل: ومَنْ خلفاؤك يا رسول الله؟ قال: الذين يأتون من بعدي ويروون حديثي وسنتي» وهكذا الأئمة المعصومون الاثنا عشر ركّزوا تلامذتهم الفقهاء محاور قيادية في مواقع الموالين والاتباع. ثمّ اكتملت الصورة التي أرادتها مدرسة السماء للمؤمنين على يد خاتم الأوصياء بقية الله في الأرض حين منحهم شرف النيابة عنه فنصّبهم علينا حججاً وحكاماً وأمرنا بتقليدهم كما ورد في روايات عِدَّةٍ عنه عُجّل فرجُه[1]. ثمّ أن الباحث المتتبع لا يجد نصاً واحداً يرشد الأمة لقيادة غير الفقهاء، هذا ما فهمته الأمة بعد بذل الأئمة المعصومون جهداً في تثبيت هذا المفهوم، ومع تمسك الأمّة بعقيدتها التي تدعوها للطـاعة لولاة الأمر تتصاعد مؤامرات الطغاة الذين لا يروق لهم إتباع الأمة للقيادة الشرعية لما لهم من أطماع في الملك والسلطان. وقد جرىٰ صراع الشياطين مع كل القيادات الربانية بدءاً برسول الله ﷺ ومروراً بما عاناه الأئمة في عهد الأمويين والعباسيين ومثلهم عاش خلفاؤهم في عصر غيبة الإمام[2].

إن وضوح الدليل الشرعي الذي يأمر الأمة باتباعهم يتبعه تخوف الظلمة وفزعهم من تلك الوجودات النورانية، فيحاولون إستمالتهم ولكنهم عندما يعجزون عن ذلك يلجأون للإرهاب الفكري والاعلامي حيث يسعىٰ الظالمون

---

(١) أئمة أهل البيت عليهم السلام دورهم وحياتهم: الشهيد الصدر (رض).
(٢) المصدر السابق.

إلى تشويه صورة القائد الشرعي وذلك بخلقِ وجودات لا تمتلك المؤهلات الشرعية للقيادة في محاولةٍ لمحورة الناس حولهم من أجل أن يطفئوا ـ كما يوهمهم غباؤهم ـ نور الله تعالىٰ فيسعون للتآمر على القائد الشرعي وقتله فيرتفع هو عند الله درجات ويبوء الظالمون بالإثم ويبقىٰ دمه يلاحقهم ويقضّ مضاجعهم، كما بقي دم حجر بن عدي يؤرّق ويقلق ويزلزل كيان معاوية.

هذا ما عشناه بعين الواقع مع القيادة النائبة في عصرنا، فقد حاول الطغاة استمالة الإمام الحكيم ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل الذريع. ولما رأوا خيبة أملهم تعمي أبصارهم وتسدّ منافذ النور في أعينهم وآمالهم سخرّوا كل طاقاتهم لتشويه صورة السيد والتشويش على شخصيته ولكنهم لم يفلحوا وارتدوا على أعقابهم خاسئين إلى أنْ إرتحل عن هذه الدنيا مظلوماً صابراً محتسباً، وقد أعدوا العدة من جديد مع السيد الشهيد الصدر (رض) ولكنهم تجرّأوا على مقامه السامي وامتدت أياديهم القذرة إلى نحره الشريف وسالت دماؤه الزكية التي لم تزل تسأل عن الثأر.

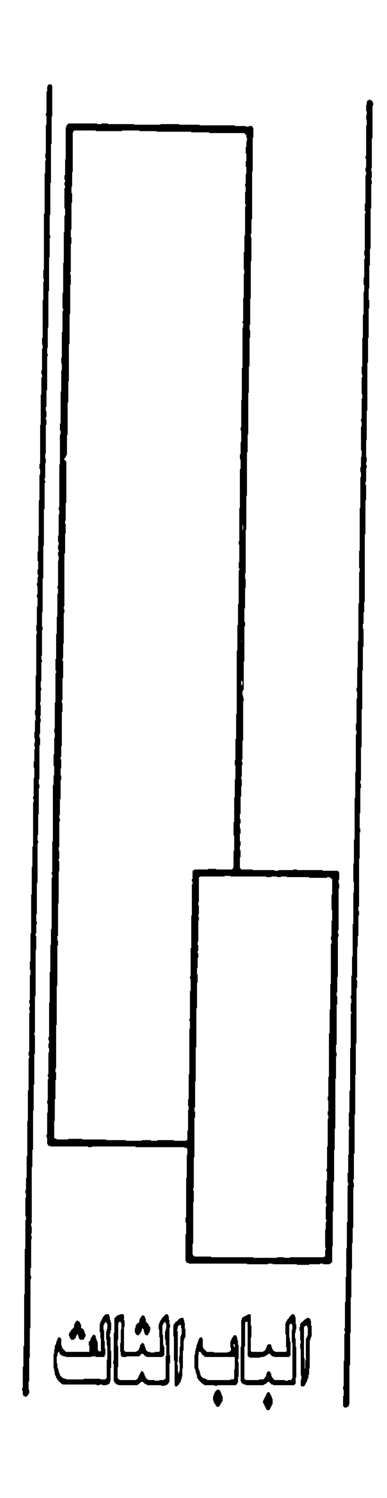
ولكن غائرة الصدور انفجرت مع إنفجار النور في إيران الإسلام ولم يكتفوا بالأساليب الماضية التي استخدموها مع المراجع السابقين بل إتحدّ ظلمة العالم وناهبي الشعوب المستضعفة ليعلنوها حرباً ضروساً على الجمهورية الإسلامية وقائدها العظيم والمرجع الكبير آية الله العظمىٰ الإمام الخميني (قدس سرّه) ولكنه (رض) وقف لهم بالمرصاد حتى مرّغ أنوفهم في الوحل إلاّ أنهم استخدموا أقذر وأخبث الوسائل والمؤامرات والدسائس ضد الجمهورية الإسلامية إلى أن رحل الإمام مظلوماً منتصراً ولما تزل المؤامرات. وأخيراً لم يجد الطواغيت راحةً وهم يرون المرجعية في النجف تمتد جذورها إلى أقطار العالم وقلوب المؤمنين والمسلمين فيها ولا سيما وأن المرجعية الرشيدة وزعامة الحوزات العلمية بيد حفيد الإمام جعفر الصادق عليه السلام وإن وجودها لم يجعل النوم يهتدي إلى جفونهم المتقرحة،

فلا بد من تطويق السيد الإمام الخوئي وفرض الرقابة عليه ومحاربته بالأسلحة النفسية وأتباعه والهجوم بشراسة على طلاب الحوزة العلمية وعلمائها وتهجيرهم إلى خارج البلاد بحجة عدم عراقيتهم وتبعيتهم في الأصل إلى إيران بغية تفتيت الحوزة العلمية وليتفرّغوا لبقية الطلبة والعلماء العراقيين ليستبحوا دماءَهم وليملأوا بهم السجون وليشرِّدوهم عن وطنهم. . وهذا وغيره كثير قرّح قلب المرجعية وفؤاد الإمام الخوئي على كبر سنه وشيخوخته حتى تراكمت عليه الأحزان وألمّ به الهمَّ والغمّ فماتَ كمداً.

إن هؤلاء المراجع العظام «الصدر، الخميني، الخوئي»، قد تعرّضوا للظلم أيضاً من بعض الأوساط التي يفترض أنها مؤمنة وحتى بعد أن انتقلوا إلى الرفيق الأعلىٰ وإلى اليوم وهم عرضة للتجريح من قبل بعض هؤلاء، والسبب هو أنّ ذوق هذا الإنسان أو هذه المجموعة لا يتفق مع مسار هذا المرجع أو ذاك وهذه الظاهرة في الواقع نابعة من بساطة المنتقدين وسذاجتهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن السعي لتقويض هيبة «القيادة الشرعية» منكر ومن أشد المنكرات، فكرامة المؤمن العادي عند الله أهم من الكعبة فكيف بأعاظم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وخلفاء الرسول ﷺ ونوّاب الإمام المنتظر، ويكفيهم فخراً أنّ أعداءهم ومحاربيهم أعداء الله ورسوله.

كما إن تمسكنا بقيادتهم نابع من إيمان بالعقيدة الإسلامية ومستند إلى حقائق علمية أثبتت التجربة صحتها وثبت أن الفقهاء العظام هم أقرب الناس لروح الشريعة وأبعد ما يكونون من الانحراف. فتاريخ الغيبة الكبرىٰ يتحدىٰ أن يجد الباحث موقفاً خائناً أو إنهزامياً أو إنحرافياً في قيادة العلماء العظام.



الباب الثالث

الدور الحضاري والفكري للنجف الأشرف في العالم الإسلامي

النجف: تقع مدينة النجف في الجنوب الغربي من العراق وعلى مقربة من نهر الفرات حيث تبعد عنه وعن الكوفة عشرة كليومترات تقريباً، وعن بغداد «١٦٠» كيلومتراً، وقد تمصّرت وانتشر إسمها في العصر العباسي، . بعد أنْ بقيت مدة كمزار لمرقد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يأوي إليها الزوار وكثيراً ما ينقلون إليها موتاهم للدفن هناك عملاً بروايات ووصايا ترىٰ للنجف قدسية وميزة في الدفن بجوار مرقد الإمام علي عليه السلام. ولسنا بصدد البحث في هذا الموضوع.

وقد بدأ اسم النجف بالتألق والظهور في أعقاب حوادث مذهبية عصفت ببغداد في المائة الرابعة للهجرة، مما حمل شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي - نسبة إلى طوس من أقليم خراسان بإيران - المولود هناك عام ٣٨٥هـ والمتوفى في النجف عام ٤٦٠هـ - على الهجرة إلى النجف.

وقد استلم الشيخ الطوسي زعامة الطائفة في بغداد بعد وفاة أستاذه علم

الهدىٰ السيد المرتضىٰ طاب ثراه عام ٤٣٦هـ، وقد سار الحكام العباسيون والسلجوقيون من بعدهم على سياسة «فرق تسد» وضربوا على وتر الطائفية إلى أن اتسع نطاقها بأمر «طغرل بيك» أول ملوك السلجوقيين «السلاجقة» حيث ورد بغداد في سنة ٤٤٧هـ وشنّ على الشيعة حملة شعواء، وأمر بإحراق أعظم مكتبة إسلامية شيعية والتي أنشأها «أبو نصر سابور بن أردشير» وزير بهاء الدولة البويهي، وكانت مكتبة عظيمة حَوَتْ آلاف الكتب المخطوطة ونوادرها. حيث اشتدت الحملة الشرسة على الشيعة وعلمائهم ومدارسهم وقد استهدفت حياة إمام الشيعة الشيخ الطوسي ومنزله ومكتبته الخاصة وما ورثه من مخطوطات مشايخه العظام كالشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ وغيرهما فأُحرق الكثير وألقي في نهر دجلة آلاف المجلدات وكان من آثار هذه الفتنة الطائفية الجاهلية الهجوم على دار الشيخ الطوسي ونهب كتبه وإحراق كرسيه الذي كان يجلس عليه للتدريس. وإحراق مكتبات أُخرىٰ، أهمها المكتبة الكبرىٰ التي أنشأها البويهيون ـ كما قدمنا ـ والتي قال عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان «لم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحرّرة»[1] .

وقال ابن الجوزي في المنتظم في حوادث سنة ٤٤٨هـ:

«وفي صفر هذه السنة كبست دار أبي جعفر الطوسي، (متكلّم الشيعة) بالكرخ وأخذ ما وجد من دفاتره وكرسي يجلس عليه للكلام، وأخرج إلى الكرخ وأضيف إليها ثلاث سناجق[2] بيض كان الزوار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم إذا قصدوا الكوفة ـ يعني للزيارة ـ فأُحرق الجميع. .»[3] .

مما حمل الشيخ الطوسي على الهجرة إلى النجف الأشرف حيث لاذ

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية لحسن الأمين ج٢/ ٤١٤ وغيره من المصادر.
(٢) السنجق جمعه سناجق وهو البيدق أو الراية.
(٣) مقدمة تلخيص الشافي للسيد حسين بحر العلوم ج١/ ١١.

هناك بمرقد الإمام علي عليه السلام واتخذ منه مدرسة وقاعدة للمرجعية الدينية التي إنحصرت به لعموم الشيعة في البلاد الإسلامية.

ومن ذلك التاريخ وحتى اليوم باتت النجف مدينة للعلم ومركزاً للقيادة الشيعية ومقراً في الأعم الأغلب للمرجع الديني الأعلىٰ باستثناء فترات قصيرة تنقلت فيها المرجعية بين الحلة وكربلاء وسامراء إلا أنها ما كانت تتخلّىٰ عن النجف ولم يخبُ نجمها أو يغيب دورها طيلة الألف عام التي انصرمت. كما باتت النجف مهوىٰ أفئدة العلماء الذين يتقاطرون إليها من كلِّ المناطق الإسلامية في العراق وإيران والهند وأفغانستان والتبت وأفريقيا وبلاد الخليج وغيرها من البلاد الإسلامية ليدرسوا في معاهدها العالية ويرتبطوا بمرجعيتها الدينية، وليترددوا على مرقد الإمام علي عليه السلام ومراقد العلماء والقادة هناك، ومدافن آبائِهم وأُسرِهم.

ولهذا كانت النجف موطن تلاقح الحضارات والأفكار وسكبها في إطار مدرسة أهل البيت عليهم السلام فنبغ فيها العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة مما أعطىٰ للنجف ـ في مختلف أدوار مراحلها ـ صوتاً وصدىً في أهم أحداث العالم الإسلامي ـ ومن هنا إستأثرت النجف بإهتمام كافة الرحالة والباحثين والسياسيين من مسلمين وغيرهم[1].

وقد كرس كثير من الأئمة عليهم السلام ـ بقصد أو بغيره ـ سكناهم في العراق وترددهم على مرقد الإمام علي عليه السلام وانفتاحهم العلمي وقد تأكد هذا الخط وتعمق فكره عن طريق الشيعة السائرين على نهجهم عليهم السلام وإرتباطهم بقيادة الإمام الشرعي أو الفقيه الجامع لشرائط الإمامة الدينية والدنيوية. وبعد الأئمة عليهم السلام توسعت آفاق المرجعية الدينية في النجف وكان على المسلمين

---

(١) يراجع ماضي النجف وحاضرهم للشيخ محبوبة/ وموسوعة العتبات المقدسة قسم النجف لجعفر الخليل.

الارتباط ـ بعد غيبة الإمام المعصوم الحجة ابن الحسن عليه السلام ـ بنواب الإمام عليه السلام من الفقهاء العدول الأكفاء الذين لا تُبرّأ ذمة المكلف العاميّ إلا بالرجوع إليهم والأخذ منهم»[1].

(١) أعيان الشيعة للأمين وغيرهم من الكتاب والباحثين.

خصائص المرجعية الدينية الإمامية

إن المرجعية الدينية عند الشيعة الإمامية تشبه إلى حدٍّ ما المرجعيات والزعامات الدينية في العالم من حيث الشكل الظاهر والمهام وإرتباط الاتباع لها وطاعتهم لفتاواها وتقريراتها والعمل بتوجيهاتها وتنفيذ توصياتها، سواء كانت المرجعية إسلامية أيضاً. من المذاهب الإسلامية الأُخرىٰ أو زعامة دينية ترتبط بالأديان الأُخرىٰ كاليهودية والمسيحية بمختلف مذاهبهما.

إلاّ أن الفوارق التي تميز المرجعية الشيعية عن غيرها كثيرة من حيث الجوهر والأسلوب في تألق العلماء وارتقائهم لنيل هذه المكانة السامية فالمرجعية عند الشيعة تختلف عن غيرها عند غيرهم - فمثلاً - المرجعية البابوية في الفاتيكان تتم بالانتخاب لمن يحصل على أكثر الأصوات من هيئآتهم العلمية والإدارية المسيحية وهي كذلك عند اليهود ولا تخفىٰ آثار بصمات القوىٰ السياسية المؤثرة في ذلك.

أما المرجعية الدينية عند المسلمين من غير الشيعة سواء ما كان منها في أيام الدولتين الأموية والعباسية في الماضي أو أيام الدولة العثمانية من وجوب إصدار الخليفة قرار تعيين القضاة والمفتي الأعلىٰ أو رئيس - قاضي -

القضاة والإفتاء أو مَنْ يليهم، وقد جرىٰ التابعون على منوال هذا القانون حيث أن مشيخة الإسلام في الأزهر والحجاز والزيتونة والقيروان وبغداد وغيرها يحتلون مناصبهم بمرسوم أو قرار جمهوري أو ملكي أو وزاري يصدر من رئاسة الديوان الحاكم. فقد ظل هذا الحق في التعيين مُلكاً للحكام والملوك والرؤساء لا ينازعهم فيه منازع، وليس للأمة فيه أي حق أو دور أو رأي.

وقد صار هذا الأمر سنة متبعة في تعاقب السلطات وحتىٰ حين احتل الانكليز والفرنسيون أجزاءً من البلاد الإسلامية ـ كدول شمال أفريقيا ـ وبناءً على هذا العرف فقد طُلب من نابليون إصدار قرار بتعيين مفتٍ للأزهر الشريف.

أمّا طريقة وأسلوب تسنم المرجعية الدينية عند الشيعة فإنها تختلف تماماً عن سابقاتها حيث لم يكن للحكومات والحاكمين أي دور في تعيين الفقيه أو المرجع الديني بل تتم قيادته للأمة وإدارته لشؤون المرجعية عن طريق تميزه العلمي والإيماني عن بقية علماء مذهبه المعاصرين، وما يتصف به من جدارة في القيادة والزعامة والالتزام الكامل بالأحكام الشرعية وآدابها وقد حدد الحديث عن المعصومين عليهم السلام شخصية المرجع «أمّا مَنْ كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه، مخالفاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلِّدوه»[1].

«فيجب أن يكون المرجع للتقليد عالماً مجتهداً عادلاً ورعاً في دين الله، بل غير مكب على الدنيا ولا حريصاً عليها وعلى تحصيلها جاهاً ومالاً . . . ويثبت الإجتهاد بالاختبار وبالشياع المفيد للعلم وبشهادة العدلين من أهل الخبرة، ويعتبر في المفتي والقاضي العدالة وتثبت بشهادة عدلين

(١) روي هذا الحديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام راجع كتب الفقه والحديث والرسائل العملية.

وبالمعاشرة المفيدة للعلم أو الإطمئنان وبالشياع المفيد للعلم بل تعرف بحسن الظاهر ومواظبته على الشرعيات والطاعات وحضور الجماعات ونحوها، والظاهر أنّ حسن الظاهر كاشف تعبدي ولو لم يحصل منه الظن أو العلم»[1].

ففي هذه الحالة لا يكون للسلطة الحاكمة يدٌ في اختيار أو تعيين المرجع وهي إيجابية لا يمكن تجاهلها حيال سلبيات هيمنة الحكام والملوك الذين لهم اليد الطولىٰ في عزل أيٍّ من المفتين والمراجع والزعماء الدينيين الذين يُعيّنون بمراسيم حكومية وهذا في غير المذهب الجعفري الشيعي.

الإمام الخوئي والمرجعية الدينية:

بعد وفاة السيد محسن الحكيم (رض) سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م صارت المرجعية الدينية يتقاسمها أكثر من فقيه، فقد تشطرت بين آية الله السيد محمود الشهرودي (قدس سره) (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) وبين آية الله السيد أبو القاسم الخوئي، إلا أن زعامة الإمام الشهرودي ومرجعيته لم تنتشر على نطاق واسع ولم تمتد في أوساط المسلمين العرب مثلما إمتدت زعامة ومرجعية الإمام الخوئي، وحتىٰ عند المسلمين غير العرب لم تكن نسبة المقلدين كما هي للسيد الخوئي (رض).

وقد تميز الإمام الخوئي عن بقية الفقهاء بأنّه صاحب مدرسة عقلية خرجت مجموعة كبيرة من المجتهدين ربما لم يحصل ذلك لفقيه آخر في تاريخ الزعامة الشيعية من قبل. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الإمام الخوئي سعىٰ لتخريج نخبة من العلماء خلال أكثر من نصف قرن تأثروا بمدرسته الفكرية وكتبوا تقريرات بحوثه في علمي الفقه والأصول وقد كان لهذه النخبة

---

(١) تحرير الوسيلة للإمام الخميني (قدس سره الشريف) ج١/ ٥، ٨.

الفاضلة دورٌ أساسيٌ في توسيع رقعة مقلدي أستاذهم في الأقطار الإسلامية المختلفة كالشهيد محمد باقر الصدر (رض) في العراق، والعلامة السيد محمد حسين فضل الله في لبنان ومحمد سرور واعظ في أفغانستان والذي كان يقود الفصائل الأفغانية الجهادية ضد الإحتلال الروسي[1] .

فقد كان الإمام الخوئي قبل وصوله إلى زعامة الطائفة يوصف بأنّه من كبار مدرسي الحوزة العلمية وبعد إستلامه للزعامة الدينية لُقب بزعيم الحوزة العلمية، ثم لُقِّبَ بالإمام.



مع المراجع العظام الحكيم، والشاهرودي.

(١) من زعماء الثوار الأفغان إعتقلته السلطات الروسية أول دخولها إلى أفغانستان واختفت أخباره بعد ذلك، علماً بأنه كتب تقريرات بحث الأصول لأستاذه الخوئي وطبعت في مجلدين بعنوان «مصباح الأصول».

ويعتبر عصر الإمام الخوئي في المرجعية والعلم معيداً لعصور الإزدهار العقلي لمدرسة الإجتهاد أيام المحقق الحلي (القرن السابع الهجري/ الحادي عشر الميلادي) ولعصر الشيخ الأنصاري (أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي) وكانت له قبل توليه الزعامة الروحية مواقف عارض فيها سياسة الحكم الملكي الإيراني أيام الشاه المقبور وقد نشرت تصريحاته في هذا الشأن عام (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م).

كما حمل هذا الفقيه في شبابه نظرات إصلاحية تتعلق بإصلاح المؤسسة الدينية الشيعية حيث فكّر في الأربعينات الميلادية. بإعادة إحياء المركز الدراسي في مدينة كربلاء حيث استقر هناك للتدريس ألاّ أنه لم يحقق نجاحاً في هذا المضمار، فرجع إلى النجف مرة أُخرىٰ.

وقد عاصر الإمام الخوئي مرحلة حرجة من تاريخ العراق الحديث منذ بداية السبعينات وبعد قيام الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) وتحوّل الأوضاع السياسية في العراق بشكل كبير.

وعند قيام الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٠ كانت الحكومة العراقية تسعىٰ إلى إستحصال تأييد من القيادة الدينية المتمثلة بمرجعية الإمام الخوئي إلاّ أنه فوت عليهم ما أرادوا ولم يتدخل في الوضع السياسي القائم بين البلدين وبقي محتفظاً باستقالية الحوزة العلمية في النجف. وقد تحمل من جراء موقفه هذا ضغوطاً من جانب الحكومة العراقية ولم تنتهِ هذه الضغوط بقتل صفوة ليست بالقليلة من تلامذته الروحيين الاّ أن موقفه لم يتغير وبقي ثاتباً في عدم إدانة الثورة الإسلامية في إيران وزعيمها الكبير آية الله الخميني (رض)، أو حتىٰ إصدار فتوىٰ تتعلق بالقتال الدائر بين الطرفين. وقد عبّر أحد المقربين للسيد الخوئي عن ذلك بقوله «إنّ الظرف الذي حتم على السيد الخوئي تجنب السياسة في العراق هو في حدّ ذاته نوع آخر من

السياسة»[1] . لتجنب الصراع بين المرجعيات الكبيرة كالذي حصل بشكل واسع بين القطيفي والكركي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، أو بشكل أقل منه بين اليزدي والخراساني (في القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي).

وبخصوص موقف الإمام الخوئي من الثورة الإسلامية الإيرانية نجد أنه كان في أوائل إنتصار الثورة الإسلامية قد بعث ببرقية هنّأ فيها الإمام الخميني (رض) بتأسيس الجمهورية الإسلامية وقد ردّ عليه الإمام الخميني (رض) ببرقية جوابية كما أقام الخوئي حفلاً تأبينياً بعد إغتيال آية الله مرتضىٰ مطهري عام (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، وقد اعتبر مجلساً سياسياً[2] في تلك الظروف التي مرّت بها النجف.

ولما كان السيد الخوئي المرجع الأول للطائفة الشيعية في النجف فإنه لم يمنع من ظهور تلميذه الشهيد محمد باقر الصدر (رض) كفقيه كبير درج على تسلم الزعامة لولا مقتله في العراق عام (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

إن المرحلة التي عاصرها آية الله الشهيد محمد باقر الصدر تعتبر من المراحل المتميزة في تاريخ المرجعية الدينية الأثنىٰ عشرية والتي تبدأ بمواكبة التحرك السياسي الإسلامي في العراق منذ الخمسينات الميلادية وتنتهي باستشهاده بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران حيث أغتالته يد الغدر والخيانة لجلاوزة النظام الصليبي في العراق.

الإمام الخوئي والتأسي بالأئمة عليهم السلام[3] :

يروي نجل الإمام الخوئي الراحل، السيد عبد المجيد الخوئي. أنّه

---

(١) مذكرات سماحة حجة الإسلام محمد تقي الخوئي نجل الإمام الخوئي لندن ١٥/ ١١/ ١٩٨٨.

(٢) مذكرات محمد تقي الخوئي.

(٣) مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

عندما بدأ دراسته للعلوم الدينية وسَّط والدته لكي يحصل على راتب شهري من والده كطالب في الحوزة العلمية، وكان جواب سماحته (رض) أنه قال: إذا كان طالباً بالفعل فليذهب ليمتحن مثل غيره في «اليراني»، حيث ينعقد المجلس الذي يختبر فيه طلبة العلوم الدينية قبل تعيين رواتبهم.

يقول نجله لقد ذهبت يوم الخميس «يوم إنعقاد لجنة الإمتحانات» وكنتُ خائفاً أن لا أنجح بدرجة تريح سماحة السيد الوالد، فامتحنتُ لدىٰ الشيخ مصطفىٰ الهرندي في الشرائع وألفية ابن مالك، وفي المساء أخبروا السيد الوالد بأنني قد إجتزت الإمتحان، فنظر سماحته إلى النتيجة وعين لي راتباً كما يعين لباقي الطلبة غير المتزوجين، ثم جئته بعد مدة أطلب منه زيادة في الراتب لمساواتي بباقي الطلبة الذين يتقاضون رواتباً اضافيةً من حوزات أخرىٰ، حيث كانوا يستلمون رواتباً من بقية المراجع الأخرين بينما لم أكن أتقاضىٰ إلا من حوزة السيد الوالد. فكان ردُّ الإمام: إن مصاريفك الأُخرىٰ «من لباس ومأكل مكفولة» وعلى أي حال فقد زاد في عطائي قليلاً بعد أن قام بعملية حسابية دقيقة حول إحتياجاتي.

وهذه الحادثة التي يرويها السيد عبد المجيد ما هي إلاّ مؤشر على طريقة تعامل الإمام الراحل مع الأموال العامة، فلم يكن يصرف على نفسه وبيته من الحقوق الشرعية أبداً، بل أنه يستخدم في ذلك ما يأتيه من الهدايا الخاصة والتي كان يذكِّر العائلة بأهمية الترشيد في الصرف، فكانت حياة العائلة بسيطة ولا تتميز عن حياة الأخرين، وكان يحث أبناءَه وعائلته على عدم التفاضل والتميز في المعيشة بل يجب عليهم أن يعيشوا كأقرانهم في الحوزة.

وعلى صعيد آخر طلب الأطباء مراراً من السيد الخوئي أن يروّح قليلاً عن نفسه فكان جوابه: أن القراءة تريحه وإلقاء الدروس يرفِّه عنه. وبالفعل فقد كانت أيام السيد (قدس سره) كلها حافلة بالعمل الجاد، حيث كان

يستيقظ قبل الفجر، فيتوضأ للصلاة وكان يتهجد إلى أن يحين وقت صلاة الصبح، ثم يصلي ويفطر مع عائلته. وعادةً ما يكون إفطاره قطعة من الخبز والجبن المحلّى والشاي وكان يصرُّ على أن لا يأكل وحده بل ينادي أفراد العائلة أو عمال البيت أو الضيوف لمشاركته الطعام. وبعد الأفطار يستريح قليلاً ثم تبدأ جلسة الاستفتاءات الشرعية في الساعة الثامنة صباح كل يوم. وعندما تأتيه رسائل من مختلف بلدان العالم يصرُّ سماحته على فتحها بنفسه وقراءتها واحدة واحدة ويجيب على ما فيها من المسائل الشرعية.

وكان يحضر مجلسه بصورة شبه دائمة مجموعة من العلماء لمناقشة المسائل الفقهية وكان منهم آية الله علي البهشتي وآية الله السيد مرتضىٰ الخلخالي وآية الله الشيخ محمد إسحاق الفياض، وحجة الإسلام والمسلمين الشيخ جعفر النائيني «حفيد الشيخ النائيني الكبير، أستاذ السيد الخوئي وصهره».

هذه اللجنة الدائمة كانت تضم في بعض الأيام علماء أفاضل آخرين للمناقشة، وللاستفادة من كيفية إستنباط الأحكام ولا سيما في المسائل الصعبة.

ومن الشخصيات العلمية التي كانت تحضر أحياناً مجتهدون كبار آخرون. من أمثال آية الله الشيخ مرتضىٰ البروجردي وآية الله الشيخ علي أصغر الأحمدي.

وبعد نقاشات وأبحاث يتوصل إلى إجابات فقهية يتولىٰ الأربعة (أعضاء اللجنة الأصلية) كتابة هذه الإجابات بخط اليد ومن ثمّ تعرض على سماحة السيد حيث يتحقق منها فيوقع عليها بخاتمه الشريف، ولم يكن ليسمح لأحدٍ مهما كان بإستخدام خاتمه، بل كان يحتفظ به دائماً مع مفاتيحه الخاصة، ولا يمضي إلا هو بنفسه على كل رسالة أو جواب.

وتستمر جلسة المسائل الشرعية حتى قبيل وقت الظهيرة حيث يتهيأ للصلاة فيؤم الناس في جامع الخضراء الملاصق للحرم العلوي الشريف من جهة الشرق. حيث شهد هذا الجامع دروساً ومحاضرات للسيد على مدىٰ ستين عاماً، (إلى ما قبل سنتين عندما منعته حالته الصحية من الذهاب إلى الجامع). وبعد الصلاة يبقىٰ فترةً وجيزةً في المسجد يتوافد فيها عليه الزائرون للسلام عليه والتبرك بتقبيل يديه الكريمتين، ثم يرجع لتناول طعام الغداء مع العائلة أو الضيوف. وبعدها يستريح سماحته حتى الساعة الرابعة عصراً حيث يبدأ مجلسه الثاني لمناقشة الأمور العامة والرسائل الواردة في هذا الخصوص.



الإمام الراحل من على منبر الدرس.

هذه الجلسة ليست لمناقشة فتاوىٰ شرعية وإنما لمناقشة القضايا الاجتماعية وشؤون الوكلاء ومتابعة مسؤوليات المرجعية في العالم من حوزات علمية. ومؤسسات ومشاريع وأمور عامة من قبيل إرسال برقيات التعازي أو التبـريكـات أو الرسائل التوجيهية للمؤمنين في جميع أنحاء العالم.

وكان ممن يديم الحضور في جلسة العصر المرحوم آية الله العظمىٰ السيد عبد الهادي الشيرازي وحجتا الإسلام والمسلمين السيد محمد إبراهيم الشيرازي[1] والسيد محمد علي الشيرازي (قدس سره) وكذلك بعض من له علاقة بالمشاريع والقضايا الاجتماعية والإدارية والسياسية وما شاكلها. وتضم الجلسة أحياناً عشرين أو أكثر من المتخصصين في مختلف الشؤون.

وكان المدير للأمور المالية ومسؤول توزيع الرواتب على العلماء والطلاب هو العلامة الحجة الشيخ فخر الدين الزنجاني ويساعده في ذلك العلامة الشيخ أحمد الكاظمي.

وكان سماحته يحب الاكثار من التشاور وتبادل الرأي ويردّد دائماً: «ما خاب من استشار». وتستمر جلسة العصر حتى السادسة مساءً يتهيأ بعدها لتجديد الوضوء وأداء صلاتي المغرب والعشاء في جامع الخضراء أيضاً. وبعد الصلاة يجلس في «البراني» يستقبل الناس الذين يتوافدون من المدن والبلاد المختلفة للسلام عليه والتبرّك بزيارته، وغالباً ما يعرض عليه كثير منهم مشاكله، حيث يستمع إليها بعناء ويأمر بحلّها ويتابع ذلك بنفسه ويستمر المجلس حتى الساعة التاسعة مساءً وقد يتأخر أحياناً إلى الحادية عشرة ليلاً.

وبعدما يرجع السيد إلى البيت يجلس مع الأسرة حيث يلاطف أفرادها

---

(١) معتقلٌ لدىٰ السلطات البعثية العراقية منذ إنتفاضة شعبان المباركة.

ويتباحث معهم في أمورهم العائلية الخاصة فينصح هذا الابن ويسلي تلك الحفيدة وهكذا، وكانت لغرفته بابان، واحدة تؤدي إلى المجلس والأخرىٰ إلى بيت العائلة.

ويقول نجله عبد المجيد: كان الوالد يقضي بين عياله إذا اختلفوا في أمرٍ ما فكان مرحاً معهم، سريع البديهة إذا دخل عليه أحدٌ مهموماً أو فرحاً أو ما شابه، فينظر إليه متفحصاً ويسبقه بالسؤال مبادراً عن سبب شعوره وبما يحس به، وفي كل ليلة كان يعطي الأطفال بعض الحلوىٰ ويوزع عليهم ما أهدي إليه من قبل الزوار، وتستمر الجلسة العائلية لمدة ساعة أو أكثر بقليل ثم ينصرفون من غرفته ويبدأ سماحته بالمطالعة والاستماع إلى الأخبار العالمية حيث كان مواظباً على متابعة أخبار العالم والمسلمين على وجه الخصوص، وأحياناً يشكي بأنه لم ينم الليلة الماضية لسماعه خبر مؤلم عن كارثة في هذا القطر الإسلامي أو ذاك أو سمع بمقتل المسلمين في أفغانستان أو لبنان أو فلسطين أو على جبهات القتال خلال الحرب المفروضة على الجمهورية الإسلامية الإيرانية.



يحمل هموم المسلمين:

نعم كان سماحته (رض) يتابع أخبار السلمين أولاً بأول ويطلب من أبنائه والمقربين بإطلاعه على آخر الأخبار وتفاصيلها كما تنقلها الصحف والناس، ويشرف على إرسال المعونات والمساعدات وبرقيات المواساة للمناطق والعوائل المنكوبة، وكان يوزع ما يأتيه من الحقوق الشرعية على الفقراء والمحتاجين ويتابع شكاواهم[1] حتى إذا نسي أحدٌ أمراً ما ذكره به وسأله عما قام به تجاه الطلبات الواردة. وكان يوصي مَنْ حوله بالعوائل المحترمة التي أُصيبتْ بالضراء ويكرر دائماً «إهتموا بشأن هؤلاء الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» وكانت المعونات ترسل إليهم بطريقة سرية وبكل هدوء لحفظ ماء وجوههم.

وعلى نطاق أوسع كان يتابع أمور الكوارث الطبيعية في مختلف أصقاع العالم الإسلامي، ويوصي بإرسال المعونات لهم والوقوف إلى جانبهم. كما كان يتأكد من الصرف على المدارس والمستشفيات ومراكز رعاية الأيتام في العراق وفي أنحاء العالم الإسلامي، وفي نفس الوقت كان يشارك جيرانه والمقربين أفراحهم وأتراحهم. أمّا في البيت فقد كان يهتمّ بالأيتام ممن حوله حتى إذا تنازع أحد عياله مع يتيم قضىٰ بالحق لليتيم، وإذا إحتج الابن الذي يحسب أنه على حق كان يذكره بأن له أب يرعاه بينما ليس لليتيم أحد يلجأ إليه فلا بأس بالعطف عليه.

كان رحمه الله يمنع المحيطين به عن مجابهة أعدائه بالشدة، حيث كان يكرمهم كثيراً ويدعو لهم بالتوفيق والهداية عندما يأتون إليه ويستضيفونه سأله يوماً أحد أبنائه: هل ترجو لهم الهداية حقاً يا أبي، أم إنك تجاملهم لكونهم ضيوفاً؟ فكان ردُّه واضحاً وقوياً: إبداً يا بني إنني أدعو لهم بصدق

---

(١) مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

أن يهديهم الله ليكفي المؤمنين شرّهم.

فلم يحمل سماحته في قلبه بغضاً على أحد، حتى لو كان من الحاقدين الذين كانوا يرسلون رسائل الشتم والسباب له. ويمنع مَنْ حوله من الردّ عليهم. قال له أحد أبنائه يوماً: يتهمونك بالبهتان والزور!! فكان ردّه: إذا كان الحق لي فأنا أُبرِيء ذممهم. فقال ابنه: وماذا عن حقنا نحن أبناؤك؟ أليس من واجبنا الردّ على هؤلاء والدفاع عنك؟ فكان جوابه: أنتم لكم حق في ذلك، ولكني ما دمتُ حيّاً فأنا صاحب الحق والردّ. أمّا أنتم فلا تردّوا عليهم.

كان يفتح رسائله الواردة إليه باستثناء المرسلة لعائلته حيث كان يسلمها لأصحابها داخل العائلة ولم تزل مغلقة، وإذا صادف أن كانت الرسالة مفتوحة فإنه يسلمها إلى صاحبها مشيراً إليه بأنه لم يقرأ محتواها.

يقول أحد أبنائه: قلت له يوماً، سيدي ليس عندنا سرٌ مخفي عليك. ولكنه يصرُّ على عدم قراءتها... لكنّ الرسالة الوحيدة التي آذته وأثّرت فيه كثيراً جاءت إليه قبل سنوات من «أحد طلاب الدنيا باسم الدين» وقد إحتفظ بها في جيب سترته الداخلية يحملها معه إينما ذهب، وأوصىٰ بأن تدفن الرسالة معه حيث كانت الرسالة تشكك في نسبه الشريف وأنه ليس من عترة رسول الله ﷺ... وقد آلمته كثيراً إلى درجة كان يردد معها إنه يريد أن تدفن الرسالة معه ليريها إلى جده مصطفىٰ ﷺ وجدته فاطمة الزهراء عليها السلام ليشتكي عندهما ممن يشكك في نسبه لهما.

الصدر الرحب:

أكثر ما كان يؤذي سماحته الكذب، فإذا أحس بأن أحداً من أسرته أو المقربين إليه يحاول أن يخفي شيئاً ما عنه، فإنه يتفحص في وجوههم وببديهة سريعة كان يتحقق من الأمر.

كان رضوان الله عليه رقيق القلب، كثير البكاء، كثير الذكر لمصيبة جده الحسين عليه السلام وكان يقيم في مجلسه العزاء كل أسبوع ويأمر بإقامة المآتم والإطعام لزوار جده الحسين في أيام الزيارات في كربلاء المقدسة كما وإنه كان ملتزماً بزيارة سيد الشهداء في الزيارات المخصوصة الواردة.

وكان يتألم أذا أصيب أحد معارفه بسوء أو أذىٰ حيث أنه كان دائم الإتصال بمعارفه من العلماء داخل العراق وخارجه.

وكان يبدي حرجه من تقديم الناس له على أبيه أيام حياته حتىٰ توفي والده ودفن في الصحن الحيدري الشريف في إيوان «مقبرة المرحوم النائيني»[1] وكان شديد العلاقة بعوائل أساتذته السابقين يتابع أحوالهم ويتفقد أمورهم مردِّداً: إنّ لهم فضلاً عليَّ.

وكان (رض) شديد الإلتزام بالعهد والوعد حتى في المواعيد الخاصة العادية وإذا تأخر أحد عن موعده ـ مثلاً ـ كان لا يوجه إليه اللوم أو العتاب بصورة مباشرة وإنما يلفت نظره إلى ذلك حيث يقول: إني أحبّ فلاناً لأنه يحافظ على مواعيده.

كان شغوفاً بالفنون المعمارية ذوّاقاً لها وكذلك مع مختلف فنون الأدب والشعر[2]، حيث كان يعرض عليه الشعر باللغات الثلاث التي كان يجيدها العربية والفارسية والتركية.

مما يروىٰ عن نوادره أن أحد العلماء وهو كثير التحرّز في شؤون الطهارة دخل على سماحته يوماً قائلاً: أنا أعتقد أن الهواء نجس فالهواء مع أنه غير مرئيٍّ إلاّ أنه محسوس، ودليل نجاسته أنه يحتكّ على الدوام بالنجاسات الأُخرىٰ في الوجود.

---

(١) مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

(٢) المدرسة الآن مدمرة من قبل القوات البعثية خلال قمعها للانتفاضة الشعبانية.

فكان ردّ سماحته عليه: صحيح ما تقول: إن الهواء يحتك بالنجاسات إلا أنه أيضاً يحتك بالبحار والبحيرات في العالم وهي أكثر من كر، وبالتالي فهي لا تتنجس.

حضور دائم:

كان سماحة السيد (رض) يتابع الأمور الحسبية بدقة واستمرار حيث أن معظم الإجازات والمعاملات والرسائل تحرر من قبل المرحوم السيد المرتضىٰ النقشواني «ت آب/ ١٩٩٠» وكان يدقق الوصولات وأرقامها ومطابقتها لما يرد ويصدر، ولم يكن يستخدم الحقوق الشرعية في الإنفاق على نفسه وعائلته، وكان لا يستبدل ثيابه إلاّ بعد أن تُبلىٰ، حتى اعترض عليه بعض المقربين قائلاً: إنك زعيم المسلمين لا بد أن تبدو عزيزاً في ملبسك. فكان جوابه: أنه «ما دامت الثياب نظيفة فلا مانع من قدمها» حتى اقترح عليه بعضهم بأن تعطى ثيابه للآخرين يلبسونها ويستبدلها بثياب جديدة.

وطالما كان يسأل أولاده والمقربين عن الرسالة الفلانية أو الطلب الفلاني، هل تابعوا الطلبات الواردة فيه، وهل قضوا حوائج الناس، فكان لا يفوته الاستفسار عن تلبية مطالب الناس وحوائجهم بدقة متناهية[١] .

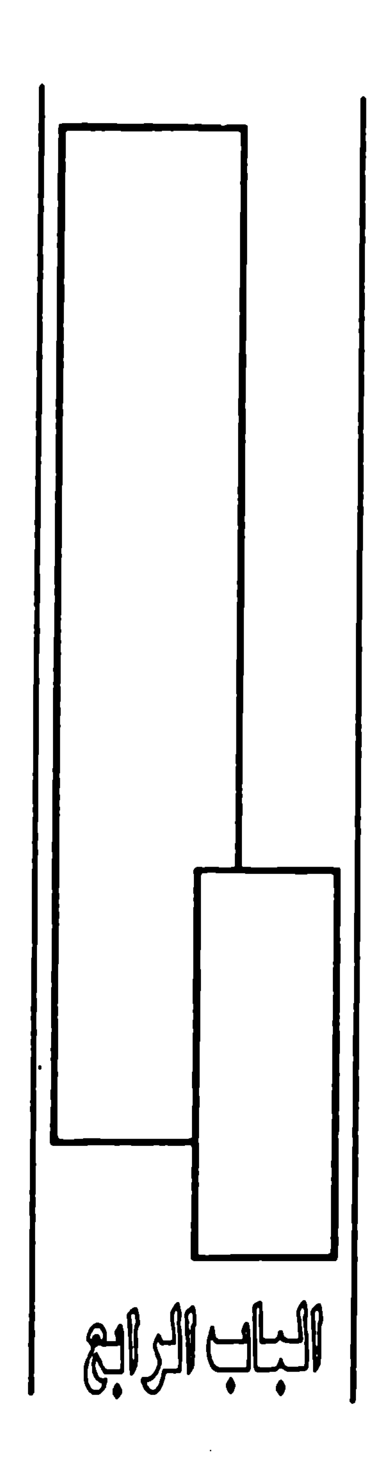
إنه من الصعب الإلمام بحياة هذا المرجع الفذ التي استمرت ما يقرب من قرن من الزمان وهي مليئة بالأحداث الجسيمة والأعمال الجليلة وقد يهيىء الله مَنْ يقوم بتأليف كتابٍ من هذا القبيل.

وكان بفقده (رض) قد فقدت الأمة الإسلامية فقيهاً كبيراً وأباً حنوناً ومربياً ومرشداً أمضىٰ عمره الشريف في خدمة الإسلام والعلم والإنسانية وقد

---

(١) مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

عانىٰ في سبيل ذلك ألوان العذاب وتحمل شتىٰ المصائب وتعرض لكثير من البهتان واللغط من قبل مَنْ لهم مصلحة في تشويه سمعة المرجعية الرشيدة حتى قضىٰ نحبه في ظل أحلك الظروف القاسية، مظلوماً صابراً محتسباً.



الباب الرابع

النشاط الفكري والاجتماعي للإمام الخوئي في إطار الحوزة العلمية(١)

إن مدرسة أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تمتد جذورها التاريخية إلى عهد الإمام علي عليه السلام وحتى وقتنا الحاضر حددت الواقع الإيماني والتحرك الجهادي والمسار الفكري والعلمي والفقهي والنشاط الاجتماعي لشريحة كبيرة من الأمة الإسلامية ومن دون أن تكون لها دوائر ومؤسسات وقواعد رسمية ترعاها وتدير شؤونها وتخطط لها من أجل تطوير المسالك المؤدية إلى عملية التوسع والتغيير التي ينشدها المصلحون في هذه الأمة بل كان جلّ إعتمادها على جهود الأئمة والعلماء والفقهاء حيث بذلوا الغالي والنفيس في سبيل توجيه الأمة نحو مستقبلها الذي يرضاه الله ويرتضيه رسوله والمؤمنون.

إن مدرسة أهل البيت عليهم السلام كانت صانعة أجيال المؤمنين على مرّ العصور وقد ترجمت أفكارها ومبادءَها بشكلٍ عملي خلاق تجسد في شخصية

---

(١) اعتمدنا في إعداد هذا البحث على مذكرات سماحة حجة الإسلام السيد محمد تقي وسماحة السيد عبد المجيد نجل الإمام الخوئي (رض).

المؤمنين من الاتباع والمريدين وميزتهم بمزايا عديدة عبر المسيرة الطويلة ولعل من أبرز هذه المزايا هي :

الإخلاص في العمل والنزاهة في التفكير والمسير والإيمان بالمبادىء والصدق في التعامل والكفاءة في الفعل . . . وهذا ما جعل السلطات الطاغوتية ـ على مر العصور ـ على حذر من حملة هذه المبادىء النبيلة التي تتعارض ومصالحها في إستعباد الناس ونهب ثرواتهم والتلاعب بمقدراتهم .

التضحية في سبيل المبادىء: إن مدرسة أهل البيت عليهم السلام بمبادئها وقيمها وتعاليمها وبما تحمله من مقومات جديرة بأن تخلق أمةً عقائديةً جهادية تهون عليها التضحية والفداء في سبيل مبادئها . وهذا ما عانته على مر العصور إجيالها من قمع وسجن وتعذيب وتشريد وقتل . حيث يرىٰ الحكام الطغاة بأن هذه المدرسة بمقوماتها عامل رئيسي في تفجير الثورات والانتفاضات ضدهم، وحيث لم تجد السلطات سبيلاً لإخضاعها عن طريق الاستمالة والترغيب والتقريب عمدت إلى الترهيب والقمع والإبادة والتصفية الجسدية وما شابه ذلك من أساليبها الوحشية .

والمسألة الرئيسية لهذه القضية المصيرية هي مسألة الوجود للمبادىء وحملتها أو اللاوجود . ومن هنا نشأت أهمية العمل المرجعي الذي يعتبرُ القوة الفاعلة في تهيئة الكوادر المخططة والمهيئة لعوامل تجسيد المبادىء والتحرك لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الأهداف السامية والغايات النبيلة .

هذا العمل البناء في إطار المرجعية ما كان بمستوىٰ الواقع المعاش في كثير من العهود الغابرة والحديثة إلى حدٍ ما، مما سهل الانقضاض على المرجعية الرشيدة وإجهاض عملها ومحو مخططاتها الإصلاحية وبالتالي التخلص منها بأي وسيلة كانت .

إنّ يومنا هذا يختلف عن أمسنا، إختلافاً كلياً في هذا المضمار حيث

بدأ الوعي يشق طريقه إلى مبادىء الفكر الشيعي وأخذ بالتنامي نمواً محسوساً لدىٰ الجماهير الشيعية. بحيث أخذت أصواتها ونداءتها تتصاعد - إن لم نقل تتفجر - بين آونة وأُخرىٰ في المطالبة الجادة بأن تكون مسيرتها على مستوى الأحداث التي تواجه هذه الطائفة. وهذا الوعي إن لم يُتدارك - بتلبية بعض طموحاته إنْ لم تكن كلها - فسوف ينفجر نقمة وغضباً على القيادات المفروضة عليه، أو الفارضة نفسها على الساحة الإسلامية الشيعية أو المتصدية للعمل السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي أو الديني وحينها يصعب رتق ومعالجة المشكلة.

ومما لا شك فيه أن على المرجعية الرشيدة للمسلمين الشيعة القسط الأكبر من هذه المسؤولية الأساسية في حياة الأمة، باعتبارها القوة الأكبر والأكثر إمكانات للعمل في خلق أو إحياء المؤسسات البناءة والفاعلة في تطوير أو تجسيد العمل المقدم لهذا الإتجاه الحيوي للأمة، وتطوير معالمها الناطقة بالحركة المثمرة.

لم تخف هذه النقطة المركزية على المرجعية منذ منتصف القرن الماضي الهجري فأعطيت الأولوية والأهمية في مرجعية الإمام الراحل آية الله العظمىٰ السيد محسن الحكيم (رض). ولكن ما ان أعطت المسيرة زمامها ليد المرجع الأعلىٰ السيد أبو القاسم الخوئي (رض) حتى أولاها الإهتمام الكبير وهيّأ الأجواء الملائمة للمشاريع التنموية على الصعيدين الفكري والاجتماعي.

الإنجاز العلمي

يعتبر الإمام الخوئي الراحل (رض) أحد أبرز مراجع الشيعة في العالم الإسلامي، فقد قضىٰ قرابة ثمانين عاماً في خضم بحار العلوم منذ وصوله إلى النجف الأشرف، (الجامعة الدينية للشيعة الإمامية) في (١٣٣٠هـ ـ ١٩١٢م).

وكان من أبرز أساتذته العلماء الأعلام، وآيات الله العظام الذين التحق بحلقاتهم الدراسية من عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٣٠م[١] .

ويمكن إيجاز ابرز الإنجازات التي حققها الإمام الخوئي على الصعيد العلمي خلال أكثر من خمسة عقود في النجف الأشرف كالآتي:

١ ـ الفقه:

حاضر الإمام الخوئي طيلة ستة عقود على طلاب حوزته الفقهية ـ والذين تجاوز عددهم المئات ـ في بحثه الخارج دورة كاملة في بحوث الفقه الإسلامي من العبادات والمعاملات. حيث كانت على الوجه التالي:

---

(١) مذكرات سماحة السيد عبد المجيد الخوئي.

أ ـ حاضر دورتين كاملتين لكتاب (المكاسب) وهو يضم بحوث المرحوم الشيخ مرتضىٰ الأنصاري المتوفىٰ سنة ١٢٨١هـ ـ ١٨٦٤م في المكاسب المحرمة وقد جعله أصلاً لبحثه، ودار حوله تحقيقاً وشرحاً واسعاً.

ب ـ بحث في موضوع الصلاة دورتين كاملتين إستعرض آراء الفقهاء السابقين وناقشها، وأضاف عليها تحقيقاً واسعاً في هذا الباب من مواضيع الفقه.

ج ـ جعل كتاب «العروة الوثقىٰ» للسيد محمد كاظم اليزدي المتوفىٰ ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٩م أساساً لبحثه الفقهي القيم والذي أصبح موضوع تدريس وتأليف لكثير من العلماء الأعلام من بعده[1].

د ـ بحوث فقهية متنوعة في العبادات والمعاملات كانت بمثابة تكميل لما سبق من بحوثه الفقهية لدورة فقهية تضم كل أبواب الفقه الإسلامي أو محاضرات له دونها تلامذته ونشرت تباعاً.

وهذه الكتب الفقهية المطبوعة سواء من تأليفه، أو محاضراته ـ وهي تشكل أكثر من ٤٠ مجلداً ـ وأما المخطوطة منها بأقلام تلاميذه فهي كثيرة وتتجاوز المائة مجلد. ولعل الزمن يجود بطبعها ورفد المكتبة الفقهية بها.

٢ ـ الأصول:

يعتبر فكر الإمام الخوئي الأصولي من أروع ما وصل إليه علم أصول الفقه في عصرنا الحاضر، ولم يكن من المبالغة إذا قلنا أن أحداً من أعلام المحققين لم يسبقه في هذا المضمار، فقد درس وحاضر عدة دورات كاملة في هذا الحقل ـ وتشير المصادر المختصة بأنه أكمل ست دورات وشرع في

(١) مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

الدورة السابعة ولم يكملها بسبب تراكم مسؤوليات المرجعية الدينية العامة التي اضطلع بها. وإن كتابه «أجود التقريرات» من أروع كتب الأصول الحديثة، وقد ضمن فيه آراء أستاذه المحقق الميرزا حسين النائيني المتوفى عام ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م مع تلاقح الأفكار الأصولية في هذا الحقل، وقد صدرت له عدة كتب مطبوعة اعتبرت مصدراً رائعاً في علم أصول الفقه، وهناك عدد كبير من التقريرات التي لا زالت مخطوطة ولم تُنشر.

٣ ـ تفسير القرآن:

ولقد شرع (رض) في تفسير القرآن الكريم واهتم بذلك، وقد تحدث



في مقدمة رائعة مركزة عن التفسير كمدخل لتفسير القرآن، ثم بدأ بسورة الفاتحة، وأصدر ذلك في كتاب أسماه «البيان في تفسير القرآن».

وقد طُبع عدة طبعات وبلغات مختلفة فكان موضع إهتمام الباحثين لما فيه من مواضيع هامة، وقد حالت ظروفه القاسية دون إكمال ذلك.

٤ ـ علم رجال الحديث:

نظراً لما لمعرفة رجال الحديث الشريف من أهمية في بناء الأحكام الشرعية فقد بذل الإمام الراحل جهداً كبيراً في دراسة رواة الحديث مع ترجمة بسيطة لكل واحد منهم تبين مدىٰ وثاقته وموقعه من الاعتماد عليه في نقل الرواية وأسماه «معجم رجال الحديث» وفرغ من تأليفه عام ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م ويقع في ٢٤ مجلداً طبع عدة مرات.

الاصلاح الاجتماعي[1]

لقد أعطىٰ الامام الخوئي (رض) إهتماماً كبيراً إلى الجانب الاصلاحي الاجتماعي والثقافي وأولاه عناية خاصة في حياته، فالمشاريع الدينية والثقافية والتربوية والإنسانية التي أمر بإنجازها والتي ما زالت في دور الإنجاز والتي قامت بها «مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية» كلها من تخطيطه وتوجيهه وتدل بمجموعها على نظرة قيادية رائدة لم تقتصر على مكان معين أو فئة معينة إنما أكدت على شمولية أوسع وتوجه أكبر لكل طوائف العالم الإسلامي الشيعي في شتىٰ بقاع العالم وأماكن تواجدهم فيها.

ونظراً لما لهذه العناية الدينية والثقافية والتربوية والاجتماعية من أثر فعال في بناء كيان الإنسان المسلم الذي يعيش اليوم غربة في عقيدته وقيمه الأصلية أمام هذا الزخم الكبير من الإغراءات في المدنية الحديثة التي أثرت تأثيراً ليس قليلاً في تفتيت الواقع العقائدي في الإنسان نتيجة عدم توفر المقومات والإمكانات البناءة في تحصين الفكر الإنساني الإسلامي وحمايته من الإنحراف.

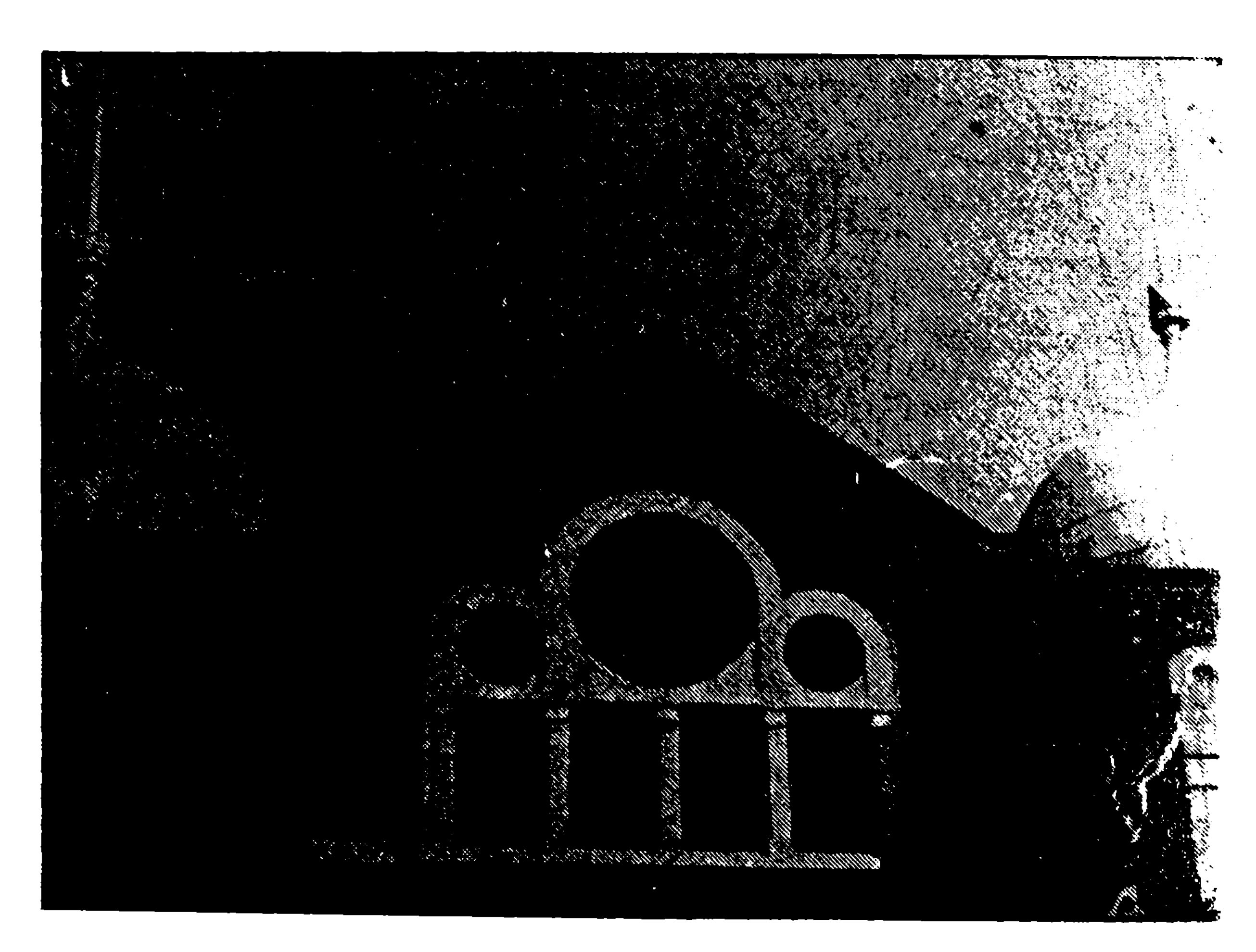
---

(١) مذكرات سماحة السيد عبد المجيد والسيد محمد تقي الخوئي نجلي الإمام الخوئي.

وقد تمكنت هذه المؤسسة من قطع شوطٍ كبير في مسيرتها الإصلاحية وسجلت مواقع جيدة في دوائر العمل الفاعل في هذا المضمار. ونستطيع أن نوجز هذه المشاريع والأعمال الاصلاحية بما يلي:

١ ـ في بريطانيا فقد تم إنجاز إربعة مشاريع كانت أمتنا بحاجة ماسة إليها منذ زمن طويل وهذه المشاريع هي:

أ ـ بناء جامع كبير يحتاج إليه المسلمون الشيعة المقيمون في لندن بصورة خاصة وبقية المدن الانكليزية بصورة عامة لأداء شعائرها الدينية في المناسبات كما يستخدم كمركزٍ إرشادي ووعظي.



مركز لندن

ب ـ مدرسة إبتدائية للبنين وأُخرىٰ للبنات تتوسع وتتطور مع المراحل الدراسية، وكانت الحاجة تقتضي إيجاد مثل هذه المدارس لصيانة وحفظ أولادنا وبناتنا من الانجراف وراء التيارات العلمانية والحرية اللاأخلاقية التي تسود المجتمع الأوروبي.

ج ـ المؤسسة الثقافية[١] والتي تأخذ على عاتقها نشر الفكر التربوي والثقافي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام ولتحقيق هذا الغرض أصدرت مجلتين: «النور» باللغة العربية والانجليزية، ومجلة (دايلوك) باللغة الانكليزية. وقد ترجمت ونشرت مجموعة من الكتب التي تعرف بمذهب أهل البيت عليهم السلام في أكثر من مائة وعشرين ألف مجلد باللغة الانكليزية بما يخدم الإنسان المسلم الذي يعيش في هذا العالم الغربي غير الملتزم.

د ـ تأسيس مكتب للعلاقات العامة التي من خلالها تطرح مشاكل المسلمين الشيعة بالشكل الواقعي وبيان مظلوميتهم.

هذه أهم المشاريع الإصلاحية التي تبنتها المؤسسة الفنية في لندن إلى جانب عدد من المشاريع الدينية الاجتماعية في بريطانيا، والموجهة بترشيد العاملين في هذا الحقل الديني. وتهيئة ذوي الكفاءة للقيام بمهام الاصلاح الديني ورفع مستواهم العلمي.

٢ ـ في إيران[٢] : أُنجز معهد ديني باسم (مدينة العلم) في مدينة قم المقدسة هذا المعهد الإسلامي خُصص لتدريس العلوم الإسلامية على مختلف المستويات مع أقسام داخلية للمقيمين من أساتذة وطلاب. وقد شيد

---

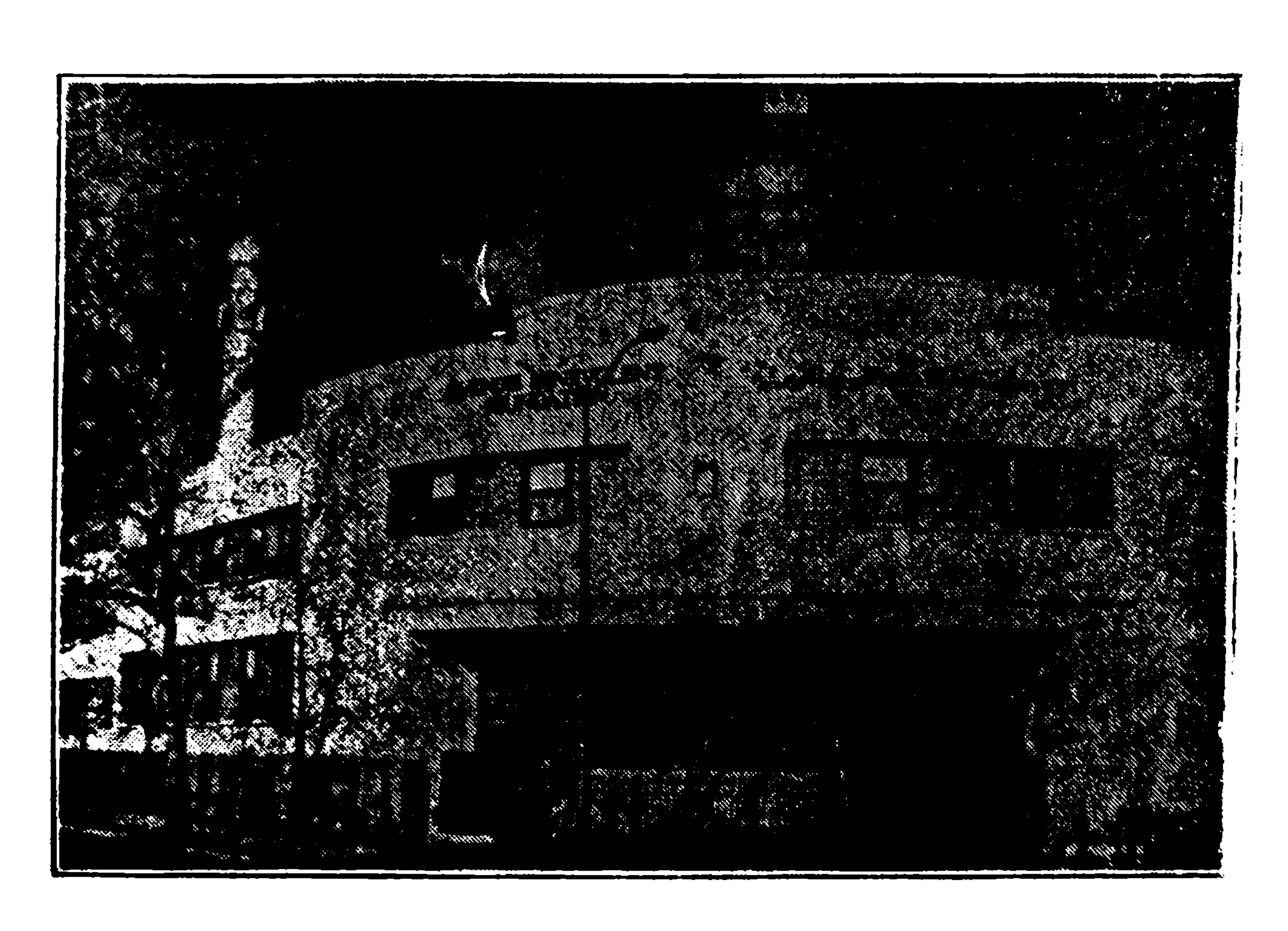
(١) مذكرات سماحة السيد عبد المجيد والسيد محمد تقي الخوئي نجلي الإمام الخوئي.

(٢) مذكرات سماحة السيد عبد المجيد والسيد محمد تقي الخوئي نجلي الإمام الخوئي.

هذا المجمع في خمسمائة منزل، والعمل جارٍ في الوقت الحاضر لتشييد خمسمائة أخرىٰ على الطراز الحديث الذي ينسجم ومتطلبات الظروف الصحية.

كما أُنجز بناء مدرسة العلوم الدينية في مشهد الإمام الرضا عليه السلام بخراسان وقد جُهّزت فيها كافة الوسائل المقتضية لطلاب المعرفة وروّاد العلم.

٣ ـ مركز الإمام الخوئي الإسلامي في نيويورك: وقد أُعِدّ للاستفادة الدينية والثقافية، ويستقبل المسلمين في كل أسبوع بتنظيم برامج دراسية في



مركز نيويورك

مختلف المستويات. وإقامة المحاضرات الأسبوعية وفي المناسبات العامة كما هيأت فيه مكتبة أسلامية ومدرسة عصرية على غرار مدرستي لندن.

٤ ـ مشروع إنشاء مدينة جامعية في بومبي مع دور سكن لطلاب العلوم وسيتم إنجاز هذا المشروع خلال أربعة سنوات.

٥ ـ المركز الإسلامي في تايلند وقد تأسس منذ عدة سنوات للتبليغ الإسلامي.

٦ ـ مشروع مركز ديني لطلاب العلوم الإسلامية في إسلام آباد في الباكستان وقد وضع أساسه في هذا العام.

٧ ـ مشروع مدرسة على اختلاف مراحلها الدراسية للطلاب المسلمين الشيعة في (ديربورت ـ مشيكان) حيث توجد هناك جاليات إسلامية كبيرة من اللبنانيين والعراقيين واليمنيين.

وهناك مشاريع متعددة لها أهميتها إمّا في دور الإعداد أو الانجاز تقوم بها مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية.

الإمام الخوئي والنظام المرجعي

المرجعية الدينية في المؤسسة الشيعية تمتاز عن غيرها من الأنظمة الإدارية والمؤسسات الاجتماعية والمعاهد العلمية، وحتى أنظمة الحكم السياسي بأنها ذات طابع فريد، وخصائص مميزة، ولذا فإن الذين يحاولون دراسة هذه الظاهرة الأصيلة من خلال الضوابط والمعايير التي عهدوها دون أن يلموا إلماماً دقيقاً بجوهر النظام المرجعي، وما يستلزمه من التقليد، يخرجون بنتائج عارية من الصحة أحياناً.

ومن الصعب الإعتراف بأن مسؤولية المرجع الديني الأعلىٰ للطائفة الشيعية تقف عند حد إقامة الحكومة الأسلامية، كما أن من الغبن القول بأن المرجع يتولىٰ إدارة الحوزة العلمية فقط، ناهيك عن الوقوف عند حد كون المرجع وسيطاً بين المؤمنين الدافعين لحقوقهم الشرعية من الخمس والزكاة والكفارات والمستحقين لهذه الأموال! .

ولتحديد موقع المرجعية بالضبط، يجب أن نلقي ضوءاً على الاجتهاد من جانب والتقليد من جانب آخر، فالاجتهاد إستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، أما التقليد فهو وضع مسؤولية الأحكام الشرعية والتصرف الفردي والاجتماعي للإنسان المسلم في عنق المجتهد.

فالمجتهد في جانب، وآحاد الأمة الذين ألقوا مسؤولية إتباعهم للأحكام الشرعية في عنق المجتهد في الجانب الآخر، والصلة بين المجتهد والأمة يطلق عليه «النظام المرجعي» والجذر اللغوي لذلك هو «الرجوع» أي الرجوع إلى المجتهد والالتزام بما يصدر عنه.

ولا يعني ذلك ـ كما أسلفنا ـ إن هذه المرجعية تتعامل مع الفتوىٰ فقط بل هي الرعاية الأبوية للأمة في جميع شؤونها ما دام المجتهد الأعلىٰ الجامع للشروط لا يتمتع بهذه المكانة لنفسه بل باعتباره نائباً عن الإمام الثاني عشر الحجة ابن الحسن عليه السلام.

لقد حفل تاريخ المرجعية الدينية للشيعة الاثني عشرية باسماء لامعة من الفقهاء والمراجع العظام الذين غطوا مساحة كبيرة من واقع الأمة إبتداءً من شيخ الطائفة الطوسي ومروراً بالعلامة الحلي، والشيخ الأنصاري والسيد أبي الحسن الأصفهاني والسيد البروجردي وانتهاءً بالسيد الخوئي (رضوان الله عليهم جميعاً).

ومن الإنصاف أن نعترف بأن مرجعية السيد الخوئي (رض) تميزت بخصائص قلما نسهدها عند غيره من مراجع الدين. وإليك بعض الشواهد:

١ ـ لقد كان السيد الخوئي (رض) أول مرجع تخرج على يديه هذا العدد الكبير من الفقهاء والمجتهدين، وهذا أمر لا يقبل النقاش فلقد لقب منذ خمس وثلاثين سنة بأنه زعيم الحوزة العلمية في النجف الأشرف حتى إتسع نطاق هذا اللقب ليشمل الحوزات العلمية بأسرها.

إن الفقهاء الذين تخرجوا من مدرسة الإمام الراحل (قدس سره) يشكلون أكثر من ٧٥٪ من كل فقهاء الشيعة الإمامية في العصر الحاضر، وهم موزعون على بقاع الأرض رافعون مشاعل العلم والهداية.

٢ ـ لقد شهد الإمام الخوئي (رض) ثلاثة أجيال من تلامذته الذين بلغوا

مرتبة الاجتهاد، وربما كان قد شهد الجيل الرابع منهم.

٣ ـ كان الإمام الخوئي (رض) يرعىٰ كل الحوزات العلمية في العالم ويخصص لها الرواتب والمساعدات لكي يتفرغ الأساتذة وطلاب العلوم الدينية لعلمهم العلمي والفقهي فحوزة النجف الأشرف وحوزة كربلاء المقدسة في العراق وحوزات قم ومشهد وأصفهان وتبريز وغيرها في إيران والحوزات والمعاهد الدينية في الهند والباكستان وتايلند وحتى في أوروبا من الشواهد الحية على ذلك[١].

٤ ـ لقد كان الإمام الخوئي (رض) أول مرجع إهتم بالعمل المؤسساتي تأسيساً ودعماً. فمن جانب التأسيس أمر بتأسيس (مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية) وهي مؤسسة عالمية قامت في غضون عمرها القصير بمشاريع دينية وثقافية واجتماعية ضخمة في شتىٰ أرجاء المعمورة.

وفي جانب الدعم كان (رض) يدعم كل مشروع ديني وثقافي إسلامي وذلك بإعطاء الإجازات لصرف المنح السخية من حصة سهم الإمام عليه السلام.

٥ ـ إنّ تبحر الإمام (رض) في «علم الرجال» أو علم «الجرح والتعديل» وهو علم يعنىٰ بتحقيق حال الرواة الذين يتوقف على وثاقتهم إستنباط الأحكام الشرعية من الأحاديث التي رووها عن المعصومين عليهم السلام، أمر تفرد به المرجع الكبير مع ما ندر من المراجع العظام.

ومن هذه المنطلقات وغيرها نجد الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إذا مات العالم الفقيه ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدّها شيء» أصدق تعبير عن الفادحة التي ألمت بالأمة الإسلامية برحيل الإمام الخوئي (رض) إلى الرفيق الأعلىٰ.

---

(١) نقلاً عن سماحة السيد محمد تقي نجل الإمام الخوئي.

مستقبل الحوزة العلمية بعد رحيل الإمام الخوئي (رض)

أثارت قضية وفاة الإمام الراحل السيد أبي القاسم الخوئي (رض) تساؤلات كثيرة حول مستقبل الحوزة العلمية الدينية والمرجعية في التقليد من ملايين المسلمين الشيعة. وتحديد من سيخلفه (رض) في هذا المنصب الالهي الخطير، ومستقبل مدينة النجف الأشرف ذات المدرسة الألفية في تاريخ الإسلام والشيعة على وجه الخصوص.

وقد دارت الشكوك حول إمكانية بقاء الحوزة العلمية محافظة على استقلاليتها أمام تزايد نفوذ وتأثير الحكومة من جهة وازدياد نفوذ المؤسسة الدينية في الشؤون السياسية من جهة أخرىٰ.

لقد وسع الإمام الخوئي نطاق عمل المدارس الدينية المعنية بالفكر والاجتهاد ورعاية المصالح العامة للأمة حسب ظروف كل منطقة، واستطاع أن ينقل عمل الحوزة من شكله الأولي التقليدي المعروف إلى الحياة العصرية من خلال عمل المؤسسات الدينية المنتشرة في بلدان العالم حيث أمر بتأسيس مؤسسة عالمية ذات منفعة عامة تعنىٰ بنشر الثقافة الإسلامية الأصيلة ورفع مستوىٰ الوعي الديني لكافة أفراد الأمة فتم إنشاء «مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية» ومقرها الرئيس في لندن ولها فروع منتشرة في كثير من

البلدان الأوروبية والإسلامية وقد أناط بها العديد من المهمات التربوية والتعليمية والدينية في مختلف العواصم.

وتمكن الإمام الخوئي (رض) عبر مدرسته الدؤوبة في العمل العلمي والاجتماعي من معالجة العديد من الإشكالات التي لحقت بالمسلمين الشيعة على الصعيدين الإسلامي والعالمي وبذلك فقد مثل الإمام الخوئي (رض) التراث التاريخي لمراجع التقليد الشيعة المتمثل بالمحافظة على التراث والاجتهاد وفي المسائل الدينية دون الخوض في المناصب التنفيذية لشؤون الدولة إلا ما كان يتعلق بالحفاظ على كيان أو هوية الطائفة في الظروف الحرجة جداً أو المسائل الإسلامية العامة.

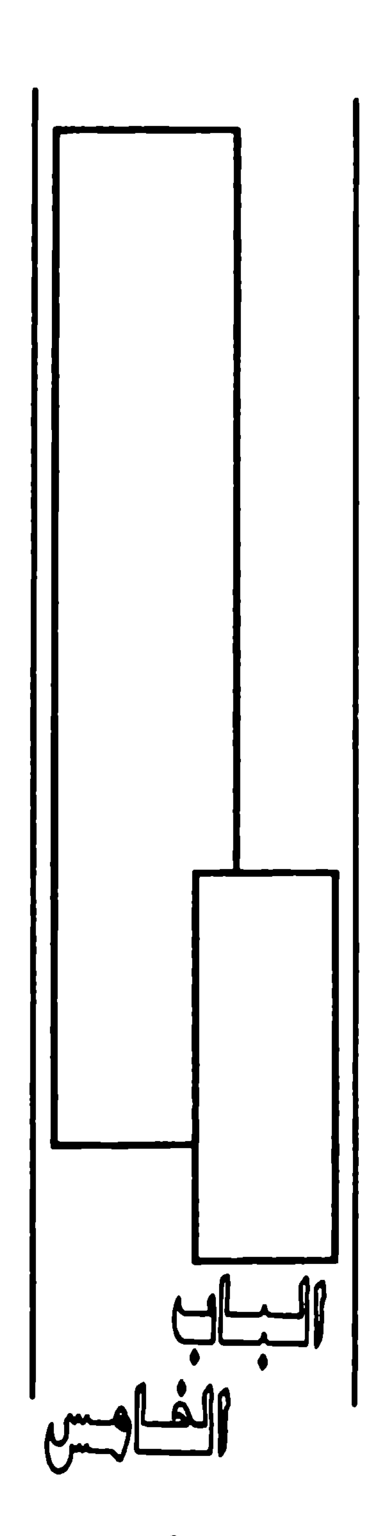
كما سبق في ذلك محافظة العلماء الشيعة في العراق على دورهم الفكري والعلمي لعدة قرون ولم يتأثروا بالتقلبات السياسية في ولاية بغداد وولاية البصرة التابعتين للدولة العثمانية على أرض العراق.

وفيما يتعلق بإشكالية العلاقة بين الحكام والعلماء الشيعة بوجه خاص وعلماء المذاهب الاسلامية الأُخرىٰ بوجه عام، فإن السلطة لم تكن يوماً ما بيد المؤسسة الدينية المتمثلة بالمشايخ وعلماء الدين ومراكز الإفتاء بنفس الطريقة التي كانت فيها الكنيسة المسيحية في أوروبا من تسلط رجال الكنيسة على مقاليد السلطة مما حدا بالهيئات السياسية والمدنية إلى الكفاح للتخلّص من نفوذ الكنيسة إلى أن انتهت الأزمة بالمشروع العلماني القائم على الفصل بين الدين والدولة حيث كان أحد الأسباب الفاعلة هو شدة نفور الجماهير من تصرفات الكنيسة مما أدىٰ إلى موت الدين وإنتصار السياسة حتى أصبحت أبنية الكنائس كمتاحف أثرية للذكرىٰ والتاريخ.

أمّا في العالم الإسلامي فقد عانىٰ المسلمون وعلى مدىٰ مئآت السنين من إشكالية أُخرىٰ ـ عكس ما كانت عليه الحالة في أوروبا مع الكنيسة ـ وهي تسلط الدولة والحكام على المؤسسات الدينية وتدخل الخلفاء في شؤون

العلم والدين لاغراضٍ سياسية وتسخيرهم لما يسمون «بوعاظ السلاطين» ونشوء طبقة علماء البلاط. وهناك مئات الشواهد التاريخية والمعاصرة على استدارج الحكام لبعض المشايخ والمفتين في تأييد أعمالهم الظالمة أو للمصادقة على الأعمال المناهضة للدين ولمصالح السلمين.

وقد أضعفت تدخلات الدولة في شؤون الدين من مصداقية بعض العلماء عند جمهور المسلمين في حين نجد أن مواقف رائعة قام بها علماء مجاهدون في وجه تدخل الحكام في شؤون الدين والإفتاء ورفض إستبدال دور المرشد للإمة بدور التابع المسير من قبل السلطة.


الباب
الخامس

موقف مراجع المسلمين «الشيعة الإمامية»

إنّ الحوزة العلمية الدينية للمسلمين الشيعة قد تمتعت بدرجة عالية من الاستقلالية عن نفوذ الخلفاء والولاة والحكام وتميزت بذلك عن بقية المراكز الإفتائية عند عموم المسلمين. وقد ساهمت عوامل عدة في بلورة إستقلالية الحوزة العلمية الدينية عن سلطة الحاكم، منها أسباب مذهبية وعقائدية تعود إلى مواقف الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بالإضافة إلى عوامل تاريخية وعرقية وتقليدية. وبسبب هذه الاستقلالية تمكّن مراجع الشيعة العظام طيلة أكثر من ألف عام من المحافظة على ممارسة دورهم الرئيس في تطوير التراث الفكري والعلمي والديني رغم كثرة المغريات وشدة الضغوط وتحمل المشاق إهتموا بدور المرشد للأمة والمراقب الموجه لشؤون المسلمين عامة، وتدخلوا سياسياً في الحالات الاستثنائية التي تتعرض فيها بيضة الإسلام إلى الخطر ومنعاً لإراقة الدماء وحفظاً للمصالح العامة.

ومن هذه الحالات غزو الكفار لبلاد المسلمين متمثلة بالغزو الصهيوني لفلسطين، ومنها إنتشار المبادىء الضالة كما حدث أبان إنتشار أفكار (ماركس ولينين) وما تعرضت له لبنان من إقتتال وتشتيت بين الطوائف المختلفة، وحتى فيما بين أتباع الدين الواحد بل والمذهب الواحد وكذلك

أوضاع أفغانستان والغزو السوفياتي وثورة إيران الإسلامية وغزو الكويت وإنتفاضة الشعب العراقي المجاهد وغيرها من الأمور المهمة التي تمس صميم الإسلام والأمة، وكان للإمام الخوئي في كل تلك الأحوال مواقفه المشهودة والمشهورة وقد عبر عنها بحكمة وحنكة قلما ظهر مثيلها لعلماء آخرين.

إنَّ فقدان الإمام الخوئي (رض) يمسّ صميم المؤسسة الدينية ويؤثر على مستقبلها بشكل ملحوظ ـ لا محالة ـ ولأسباب كثيرة منها ما يتعلق بتحديد مكان المرجعية وخصوصاً جامعة النجف الأشرف الدينية، فلا يوجد في تراث المسلمين الشيعة ما يوجب حصر المرجعية في مكان أو بلد معين، حيث تنقلت المرجعية بين بغداد والنجف والحلة وكربلاء وسامراء في العراق وبرزت أحياناً في قم المقدسة بأرض إيران حسب ما تسمح به الظروف وما تصل له الحوزة العلمية من مكانة عالية وظهور أعلم المجتهدين في تلك الفترات.

ولا شك في أنّ وفاة الإمام الخوئي (رض) قد أضعفت دور جامعة النجف وحوزتها العلمية الدينية في زعامة المسلمين الشيعة رغم وجود بعض المجتهدين المرموقين والعلماء النابغين من تلامذته.

فقد كان (رض) يصر على البقاء في مدينة النجف الأشرف رغم المضايقات المستمرة له ولعلماء المسلمين الشيعة فيها من جهة النظام البعثي الصليبي الحاقد على الإسلام وعلمائه، ولم يختر الهجرة إلى إيران رغم سهولة العيش وتعاطف الأمة معه هناك أو إلى أي مكان آخر بإمكانه الهجرة إليه والإقامة فيه.

فالكوفة هي العاصمة التاريخية لخلافة الإمام علي عليه السلام وفي النجف ـ الذي يبعد عن الكوفة ما يقارب عشرة كيلومترات ـ مرقده الشريف وفي النجف وقبل حوالي ألف عام وضعت الأسس الأولىٰ للحوزة العلمية وقد

تطورت وازدهرت مع مرور الزمن حتى وصلت إلى أوج عظمتها العلمية والمرجعية أبان عهد مرجعية السيد الخوئي فليس غريباً أن يصرَّ على عدم الهجرة منها وعلى إبقاء الحوزة العلمية في معقلها الأصيل رغم المضايقات الشخصية وتقلص عدد طلابه بشكل لم يسبق له مثيل بسبب السياسة التي ينتهجها النظام العفلقي الحاكم في العراق، وعلى سبيل المثال فإنّ أكثر من مائة عالم دين كبير من أساتذة الحوزة العلمية والمجتهدين والعلماء الأفاضل المرموقين في النجف لا يزالون محتجزين في سجون البعث الرهيبة.

وعلى آية حال فقد ترك الفقيد (رض) فراغاً واضحاً في الحقل العلمي والديني وزعامة المسلمين في العالم، فقد أمضىٰ أكثر من ستين عاماً مشتغلاً في بحوث الاجتهاد والتحقيق داخل الحوزة العلمية وتخرج على يديه آلاف التلاميذ منهم المئآت من الاساتذة والمجتهدين والعلماء المنتشرين في كافة بقاع العالم وقد امتد عمره الشريف قرابة قرن شهد فيه أهم الأحداث في القرن العشرين الميلادي. . فقد عاصر (رض) الدولة العثمانية والقاجارية كما شهد إنهيار الدولة العثمانية أمام الغزو الأوروبي وعاصر ثورة النجف وثورة العشرين في العراق والثورة الدستورية في إيران وأخيراً قيام ثورة الشعب المسلم في إيران وانتصارها بقيادة الإمام الخميني (قدس سره) وتسلم العلماء مقاليد الحكم.

وقد إختار الفقيد الراحل دوراً علمياً وفكرياً وسعىٰ من أجل الحفاظ على استقلالية المؤسسة الدينية وكرس تراث أئمة وعلماء المسلمين الشيعة في عدم خضوع علمائهم للحكم الجائر وتقويم مهمة إغناء الفكر والتراث على مهمة التصدي لشؤون إدارة الدولة السياسية.

فقد تعرضت هذه المدرسة العريقة ـ النجف الإشرف ـ إلى أصعب الظروف وذلك قبيل وفاة المرجع الديني السيد محسن الحكيم (رض) في آواخر الستينات وبداية السبعينات فقد بدأ النظام الصليبي الحاكم في العراق

مهمة ضرب التيار الديني وإذابة المؤسسة الدينية المتمثلة بالحوزة العلمية في النجف الأشرف وعلمائها المنتشرين في كل نقطة من البلاد ـ الوكلاء ـ وقام بتهجير آلاف من طلبة العلوم الدينية في النجف ومن مختلف الجنسيات ثم شنَّ حملات إعتقال واسعة بحجة منع النشاط السياسي لعلماء الدين وأعدم العلماء وسجن الآخرين وتحدّا المؤسسة الدينية في النجف الأشرف.

وتعرّضت مدرسة الإمام الخوئي (رض) إلى المزيد من الابتلاءات الصعبة أثناء إنتصار الثورة الإسلامية في إيران وطيلة الحرب العراقية الإيرانية. حيث وقف موقفاً مشرفاً إلى أن قامت انتفاضة الشعب العراقي المسلم وما جرىٰ عليه من مضايقات خلالها وبعد تحجيمها.

الاّ أنه ورغم ذلك كله فقد التزم دوره العلمي والديني أمام الضغوط والتحديات وجسّد مدرسته الواضحة المعالم التي تتميز عن غيرها.

وتعرض الإمام الراحل (رض) إلى تحديات كبيرة تمثلت بضغوط وتهديدات تجاوزت شخصه لتشمل أصل وجود الكيان الحوزوي العلمي في النجف الأشرف إلا أن الإمام الخوئي (رض) لم يهتز ولم يتزلزل أمام هذه التهديدات الجوفاء التي يستخدمها رجال البعث الجبناء. إلاّ أنه (رض) كان يحمل بين جنبيه قلباً كبيراً يتحرق ألماً لما يعانيه المسلمون في العراق وفي بلدان العالم الأُخرىٰ ولم يكتفِ بالتحرّق الصادق بل قام بكل ما بوسعه لمساعدتهم.

ويمكن تناول أربعة محاور رئيسية لتوضيح إهتمام ورعاية الإمام الراحل بشؤون الأمة:

أولاً الحوزات العلمية:

لقد تجاوزت رعاية الإمام الخوئي (رض) للحوزات العلمية كل الحدود السابقة التي كانت مألوفة قبل مرجعيته. فبعد ان كان الاهتمام منصباً

على رعاية طلاب ومدرسي حوزة النجف الأشرف وقم المقدسة ومشهد وبعض المدن الإيرانية توسع إهتمامه (رض) ليشمل الحوزات العلمية في كل المدن العراقية والإيرانية بل المدارس العلمية في باكستان والهند وتايلند وبنغلادش وأفريقيا وأوروبا وأمريكا.

فمن جانب الرعاية المالية لم تشهد الحوزات العلمية إزدهاراً معاشياً في عصورها المختلفة كما شهدته تحت رعايته (رض) ويكفي للتمثيل على ذلك ذُكر أن ما كان يوزعه (رض) على طلاب ومدرسي الحوزات العلمية في إيران وحدها كان يتجاوز المائة مليون تومان كل شهر. أما من جانب التوسع الكمي والكيفي الذي شهدته الحوزات العلمية تحت توجيهاته ورعايته فيكفي ذكر انه أمر بإنشاء عشرات المدارس العلمية التي أصبحت مراكز للتعليم والتعلّم في بلاد كثيرة نذكر منها: مدرسة دار العلم في بانكوك في تايلند، ومدرسة صاحب الزمان (عج) في كهولنا في بنغلادش، ومدرسة أهل البيت عليهم السلام في هولكي بالبنغال الغربية، ومدرسة أمير المؤمنين عليه السلام التي تعد اليوم نموذجاً للحوزات العلمية في بلاد الهند ومدرسة الإمام الباقر عليه السلام في يسيوندي في الهند وكذلك مدرسة الإمام المهدي (عج) في علي پور بالهند أيضاً، والمدرسة الإيمانية في نيارس/ الهند. والحوزة العلمية في حيدر آباد/ الهند، إضافة لكثير من المدارس المنتشرة في أنحاء البلاد الهندية إنشأت بأمره أو تم إحياؤها بعد أن اضمحلت بسبب صروف الدهر[1].

ولن ينسىٰ أربعون مليوناً من المسلمين الشيعة الهنود أن الإمام الخوئي (رض) كان محيي الحوزات العلمية والمراكز الدينية وباعث النهضة الإسلامية الجديدة في ربوع تلك البلاد الواسعة.

---

(١) من مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي

أما في باكستان فقد تأسست العشرات من المدارس العلمية وازدهرت عشرات أخرىٰ بسبب الاهتمام الكبير الذي أولاه هذا المرجع العظيم.

وفي أفريقيا أُنشأت بأمره وتحت رعايته مدارس علمية في عدد من البلدان خرجت وما زالت تُخرِّج المبلغين الذين يرشدون الناس إلى دين الحق.

وفي بريطانيا أُنشأت مدرسة السيد الخوئي في لندن للدراسات الحوزوية وفي أمريكا الشمالية أنشأت المدرسة الدينية في مدينة مدانيا[1]، وكذلك في لبنان وسوريا وتركيا.

إن رعاية الإمام الخوئي (رض) عبر وكلائه قد أدت إلى تطور كبير في وضع طلبة العلوم الدينية في تلك البلدان...

وبكلمات مختصرة يمكن القول بأن الإمام الخوئي (رض) كان رائد النهضة العلمية الحديثة وراعيها في العالم الإسلامي المعاصر.

ثانياً: المشاريع:

لقد كان الإمام الراحل (رض) ينتظر لسنوات طويلة أن تتوفر لديه الإمكانات اللازمة لإنشاء مشاريع كبيرة يستمر نفعها إلى الأجيال القادمة وتتسع دائرة الاستفادة منها إلى أبعد حد ممكن.

كان ذلك إدراكاً منه بطبيعة ظروف هذا العصر، وضرورة إنشاء المشاريع التي ترفع شأن المؤمنين وتوفر لهم مصدراً ومركزاً باقياً من مراكز النفع العام. فتوجه (رض) إلى إنشاء مدينة متكاملة لطلاب العلم ومدرسي الحوزة العلمية في قم المقدسة وهي اليوم مدينة شامخة باسم «مدينة العلم»

---

(١) من مذكرات السيد عبد المجيد الخوئي.

وهي غنية عن التعريف لشهرتها وشيوع صيتها في أوساط أهل العلم. . وقد أوقفها كما أوقف مشاريعه الأُخرىٰ في سبيل الله.

كما أنشأ (رض) مدرسة علمية في مدينة مشهد المقدسة تعد أكبر مدرسة علمية حوزوية في العالم أجمع.

وفي لبنان كان مشروعه الكبير المعروف باسم «مبرة الإمام الخوئي» داراً للإيتام ـ تضم اليوم تسعمائة يتيماً ويتيمة يعيشون منعمين بوسائل الراحة والرعاية، حتى شهدت بعض المنظمات الدولية المتخصصة لهذه المبرة بأنها من أفضل دور رعاية الإيتام في منطقة الشرق الأوسط.

وفي الهند أُنشأ مجمع ثقافي ضخم قرب مدينة بومبي على مساحة من الأرض تقارب المليون قدماً مربعاً ويعدُّ هذا المشروع أكبر مشروع إسلامي شيعي في العالم على الإطلاق، ويشمل مدارس ومعاهد مهنية ومستشفىٰ كبير ومسجداً ضخماً وتوابع كثيرة تجعل المشروع مدنية كاملة. وهذا المشروع الثقافي الخيري الإسلامي العملاق كافٍ لبيان عظمة الإمام الراحل (رض) وسعة أفقه وبعد نظره وعلّو همته.

وكما أنشأ (رض) في الباكستان مشروعاً تعليمياً ضخماً في مدينة إسلام آباد ومشروعاً تعليمياً آخر في ديترويت بأمريكا لانقاذ مستقبل أبناء وبنات أُلوف المؤمنين القاطنين هناك. وكذا مشروع إنشاء مدرسة ومركز في مونتريال في كندا، ومشروع المركز الإسلامي في نيويورك مع مدرسة أطفال.

وهناك مشاريع كثيرة تفضل سماحته (رض) بدعمها مادياً ومعنوياً منتشرة في أنحاء العالم نذكر منها المدرسة الحيدرية في حيدر آباد والمدرسة العلمية في كركيل في كشمير وجامعة أهل البيت في إسلام آباد وعشرات المدارس في إيران وباكستان والهند وأفريقيا.

وينبغي أن نوضح جانباً مهماً من جوانب رعايته (رض) للمشاريع النافعة وذلك عن طريق إجازاته السخية للمؤمنين بدفع الحقوق الشرعية لهذه المشاريع ولا نبالغ، إذا قلنا إن آلاف من المدارس والمساجد والحسينيات ودور الأيتام والمستشفيات والمستوصفات وغيرها من المشاريع الخيرية لم تكن لتنجح لولا إجازة سماحته ودعمه المادي والمعنوي لها وهي منتشرة في أنحاء المعمور.

كما أن رعايته (رض) للأمة تجاوزت ذلك الحد وتعدته إلى تشجيعه للرجال المخلصين بالإنضمام إلى صفوف الأمة وتنظيم أعمالها ومشاريعها وخدماتها.

وكان (رض) يشجع كثيراً ويؤكد على (نظم الأمور) في الأعمال الدينية والخيرية والاجتماعية. ولقد لقيت منه الجمعيات الشيعية المعروفة في مختلف البلدان كل دعم واسناد وتأييد، بل أجاز بعضها باستلام الحقوق الشرعية وصرف جزء منها في المشاريع المثمرة للأمة.

ثالثاً: الكوارث الطبيعية:

كان الإمام الخوئي (رض) سباقاً لإغاثة الملهوفين ونجدة المنكوبين في أي بقعة من بقاع الأرض، وليس أدل على ذلك من موقفه الرائع لإغاثة المنكوبين في الزلزال الأخير الذي ضرب أجزاءً من شمال إيران إذ أسعفهم بمبلغ صخم وهو «مائة وخمسون مليون تومان»[1]، وكذلك مساعدته الفورية لمنكوبي الخسف الذي أصاب كركيل في كشمير قبل بضع سنين، وكذلك مساعدته لضحايا الجفاف في الهند وموقفه المشرف في مساعدة المظلومين من المهجرين العراقيين قبل وبعد الانتفاضة الأخيرة وغير ذلك

(١) من مذكرات سماحة السيد عبد المجيد الخوئي.

من المواقف التي تثبت أنه (رض) كان كهفاً يلوذ به اللائذون ويلجأ إليه المؤمنون.

رابعاً: الأزمات والمحن:

كان الإمام الخوئي (رض) قلب الأمة النابض وعقلها المدبر، فكان يتابع الأزمات والمحن التي يتعرض لها المؤمنون والمسلمون في أنحاء العالم، ويسعىٰ بكل جهده لمساعدتهم. ففي أيام الحرب العراقية الإيرانية قدم (رض) لمنكوبي ومشردي الحرب كل أنواع الرعاية والمساعدات الممكنة، وكان في الوقت نفسه طوداً شامخاً أمام الطاغية «صدام المجرم» الذي حاول بكل وسائل الضغط والإيذاء أن ينتزع منه ولو كلمة واحدة لصالح نظامه الجائر ولكنه لم يفلح بما أراد. وانتصر الصبر الحسيني والجهاد الراسخ للإمام(رض) على ظلم الطاغية وجبروته.

وكان موقفه (رض) من محنة المسلمين في أفغانستان واضحاً وجلياً، فقد قدم كل أنواع الدعم، حتى أنه أجاز المؤمنين بدفع الحقوق الشرعية لتمويل عمليات الجهاد ضد الغزاة السوفيات، وكان (رض) يرسل مبالغ كبيرة مباشرة لدعم جهاد المؤمنين الأفغان ضد الكفار.

وفي لبنان وفلسطين كان الإمام (رض) يشجب باستمرار أعمال أعداء الإسلام ويستنهض المسلمين لجمع صفوفهم في مواجهة عدوّهم، وكان إضافة لذلك يرعىٰ فقراء لبنان بتوزيع المواد الغذائية عليهم ويدعم الوجود الإسلامي بكل الوسائل الممكنة.

وأثناء غزو الكويت كان له (رض) أروع المواقف في إحتضان أبناء الكويت المشرّدين المنكوبين فأمر وكلاءه بدفع مبالغ طائلة لرعاية شؤون هؤلاء المؤمنين الكويتين وعوائلهم إلى أن أنجلت الأزمة.

خامساً: مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية:

كان أمر سماحته (رض) بتأسيس مؤسسة خيرية عالمية مسجلة رسمياً تجاوباً مع إحساسه بضرورة إرساء قواعد مؤسسات قوية قادرة على تقديم خدمات مستمرة للمؤمنين فلقد كانت المرجعيات الدينية تبني بنيانها وترعاه، حتى إذا توفي المرجع توقف النمو وتراجع تدريجياً، بينما تقوم مؤسسة الإمام الخوئي الخيرية بوصفها الشرعي والقانوني اليوم برعاية المشاريع الكبرى التي أسسها سماحته (رض) وهي مؤهلة للاستمرار لوقت طويل جداً إن شاء الله في خدمة أبناء هذه الطائفة الحقة.

إنّ تأسيس هذه المؤسسة المباركة بادرة مباركة ترسي مشاريع الطائفة على أسس قوية وتكفل لها الاستمرار والتطور وهو إنجاز رائع وخطوة شجاعة قام بها هذا المرجع العظيم الذي ترك لهذه الأمة تراثاً ضخماً من العلم والعلماء والمساجد والمدارس والمشاريع النافعة. وفوق كل ذلك، المبادىء العظيمة التي عاش من أجلها وكرّس كل حياته الشريفة لها. إلا وهي رفع راية لا إله إلا الله وخدمة أوليائه.

الإمام الخوئي والامتحان الصعب

لقد عانت مرجعية الإمام الخوئي (رض) الكثير، فهي مرجعية وضعت أمامها الحواجز والمعوقات منذ بدايتها، فحينما برز السيد الخوئي كأحد أكبر الفقهاء والمرشحين لزعامة المسلمين الشيعة بعد وفاة السيد محسن الحكيم (رض) كانت المرجعية الدينية قد تعرضت لضربة قوية على يد نظام حزب البعث الحاكم في بغداد، بعد أن وجه النظام تهماً لنجل الحكيم (رض) السيد الشهيد مهدي الحكيم. وكان والده السيد محسن الحكيم (رض) بصدد تحرّك سياسي لزعزعة حكم حزب البعث فحدث الأمر وتسبب في وفاة السيد الحكيم (رض) بعد وقت قصير، فكانت المرجعية في خصام وصراع مع السلطة في بغداد.

وحينما استلم السيد الخوئي (رض) مقاليد المرجعية كانت الإجراءات الحكومية تطال الحوزة، فقد بدأت هذه الاجراءات القاضية بتفريغ الحوزة العلمية في النجف الأشرف من طلاب العلوم الدينية، وشملت إخراج الطلبة غير العرب من إيرانيين وباكستانيين وهنود وأفغانيين، ثم طالت العرب من غير العراقيين كالخليجيين واللبنانيين وبعدها تم تنفيذ مخطط إفراغ المدن العراقية من علمائها أما بالسجن أو القتل أو التشريد. .

وكان الإمام الخوئي (رض) يراقب الوضع وينظر بأسىٰ لما آلت إليه المرجعية والحوزة، وبعد إنتصار الثورة الإسلامية في إيران تحرك الشارع العراقي واشترك العلماء في التحرك، فدبت الحيوية في الحوزة العلمية وانتشرت شرارة الثورة في قلوب مَنْ تبقىٰ من طلبة العلوم الدينية وتصاعدت أجواء الاحتجاج على السلطة في بغداد، ولكن هذا النظام الخائف من هذه الثورة جمع قواه للمواجهة المصيرية فتمّ استبدال «البكر» بصدام التكريتي الملعون في تموز (يوليو) ١٩٧٩ وتمّت تصفية من أراد التنازل لإرادة الشعب وكانت أول مهمة قام بها صدام هي التوجه إلى تصفية ما تبقىٰ من المرجعية الدينية في النجف فلجأ إلى إعتقال المرجع السيد محمد باقر الصدر (رض) عدة مرات، وفي المرة الأخيرة تم إعدامه ودفن جثمانه في سواد الليل وفي غياب أعين الناس وأتباعه ومحبيه الذين تعرضوا من بعده لعملية تصفية جسدية دموية قاسية. وحينما رأىٰ السيد الخوئي (رض) هذه الأوضاع التي وصلت إلى إعدام أحد المراجع «الشهيد الصدر» ولا سيما وإن الشهيد من تلامذته قرر مغادرة العراق ولكن النظام منعه من مغادرة البلد وتم حجز أمواله في البنوك العراقية وكانت تقدر بحوالي مليوني دولار وقطع خط تلفونه واعتقل بعض أفراد حاشيته وتلاميذه، وأعدم البعض منهم..

جاء الامتحان الآخر بالحرب التي شنّها النظام العراقي على إيران عام ١٩٨٠م وكان موقف السيد الخوئي يتّسم بالشجاعة والصمود فهو لم يؤيد النظام المعتدي ولم يوافق على إبداء رأيه رغم شدة الضغوط والمحاولات.

ولقد استفاد السيد الخوئي من الموقف الحرج لنظام بغداد وتمكن من المحافظة على الحوزة بعد أن تقلص حجمها كثيراً، فقد أشار التقرير الصادر عن الأمم المتحدة تحت عنوان حقوق الإنسان في العراق كتبه (ماكس فان ديرشتوتيل) إلى أن عدد علماء الشيعة في النجف كان يتراوح بين ثمانية

وتسعة آلاف رجل قبل عشرين عاماً انخفض إلى الفين بعد عشر سنين وصل إلى ٨٠٠ عالم قبل انتفاضة شعبان ١٤١٣هـ/ آذار ١٩٩١[1] .

(١) التقرير صدر في ١٨ شباط/ فبراير ١٩٩٣ .

الامام الخوئي والانتفاضة الشعبانية

واجهت مرجعية السيد الخوئي امتحاناً صعباً بعد توقف حرب الخليج الثانية فقد أسفرت هذه الحرب عن إنتفاضة شعبية عراقية بدأت في مدينة البصرة وانتشرت في جنوب ووسط العراق وكانت المدن المقدسة مثل النجف وكربلاء المقدسة وغيرها من أوائل المدن العراقية التي استجابت للإنتفاضة.

وتولىٰ علماء النجف قيادة الثورة وحاولوا ترشيدها بعد أن إتخذت طابع الإنتقام من عناصر السلطة في بداية الأمر وكان للإمام الخوئي (رض) دور هام في ذلك، فقد أمر بتشكيل لجنة من ثمانية علماء تتولىٰ أمور إدارة النجف الإشرف، وتشرف على تطبيق الأحكام والأخلاق الإسلامية في التعامل مع عناصر السلطة[١] . وتم من خلالها ضبط الأمن في المدينة المقدسة.

وحاول مريدوا السيد الخوئي توسيع سلطة اللجنة لتشمل مدناً منتفضة أُخرىٰ ولكن النظام لم يترك فرصة لذلك إذ بادر إلى استخدام القسوة في

(١) أخبار الثورة الإسلامية في العراق، ونقلاً عن شهود عيان.

ضرب المدن المقدسة بالصواريخ ومدافع الدبابات ولم يرع لاضرحة أئمة المسلمين حرمة، فدمرت العتبات المقدسة ومنها مرقد الإمام علي عليه السلام في مدينة النجف وضربت قبة ضريح الإمام العباس بالدبابات في كربلاء. وقد وصل التدمير إلى الحرم الحسيني الشريف في كربلاء أيضاً. وبسبب الهجمات التي قامت بها قوات النظام الخاصة وحرس صدام ذهب مئآت الآلاف من القتلىٰ والجرحىٰ ودمرت معالم مهمة في المدن العراقية، وهدّمت الجوامع والمكتبات والمراكز الثقافية والحضارية وقتل مئات من العلماء أو تم اعتقالهم وإعدامهم[1].

ولجأ النظام إلى منهج لم تجرؤ الأنظمة السابقة على فعله ألا وهو إكراه مرجع المسلمين على الذهاب عنوة إلى بغداد والالتقاء بصدام يوم ٢١/ آذار/ ١٩٩٢م وقد تم إقتياد الإمام الخوئي (رض) من بيته بعد أن تم إحتجازه بواسطة القوات البعثية الخاصة وبطائرات الهليكوبتر. وقد اعتقل معه أكثر من مائة من أبنائه وأفراد أُسرته ومسؤولي مكتبه من العلماء المرموقين. وقد عرض التلفزيون العراقي محاورة بين الإمام الخوئي (رض) وصدام لم تكن واضحة. لكن الإمام (رض) كان منفعلاً في حديثه، . وحاول صدام من خلال هذه العملية تحطيم المد الثوري الذي أفرزته الإنتفاضة الشعبانية وكانت في عنفوانها.

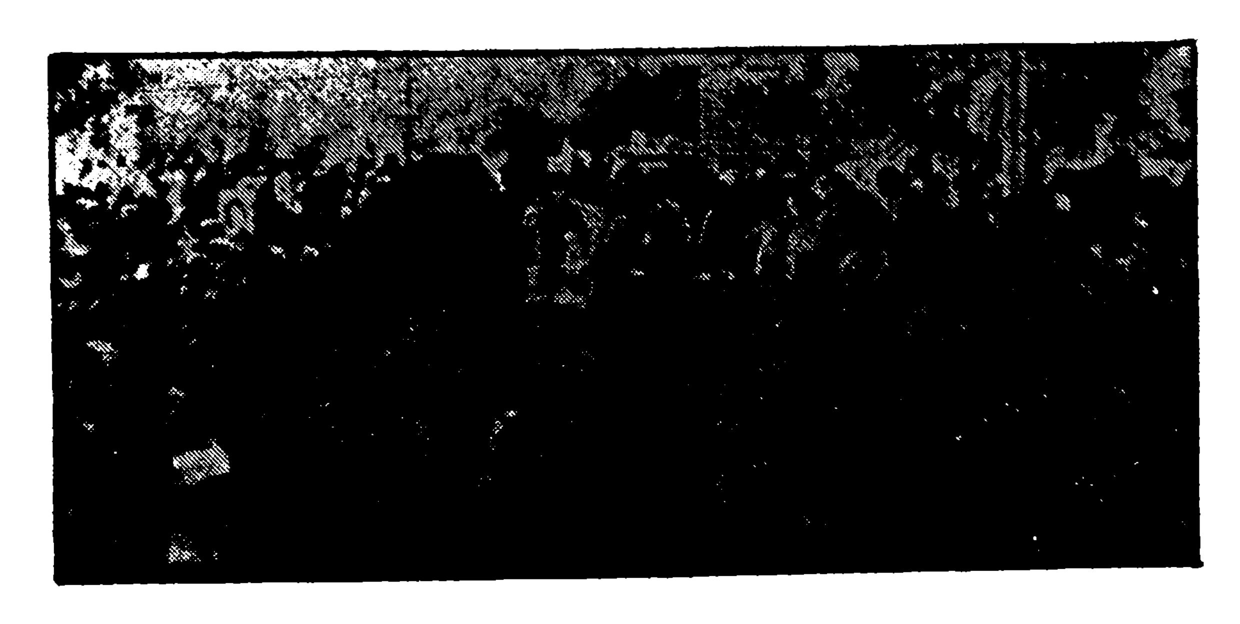
ولقد نجح نظام صدام بعد أن أرادت أمريكا ذلك وأدارت ظهرها للإنتفاضة وضربها ولكن لم يتحقق النجاح التام في القضاء عليها[2]. وقد استعمل النظام آله القهر والبطش ضد الشعب وحاول تحطيم معنويات عميقة الجرح في وجدان الشعب.

---

(١) أخبار الثورة الإسلامية في العراق، ونقلاً عن شهود عيان.
(٢) صحيفة الأوبزرفر البريطانية الصادرة بتاريخ ٤/ ذي القعدة/ ١٤١١هـ.

ولم يجرؤ النظام العراقي على قتل الإمام الخوئي (رض) كما قتل الشهيد الصدر من قبل ولكن الإمام(رض) عانىٰ كثيراً خلال السبعة عشر شهراً التي عاشها بعد ضرب وتحجيم الإنتفاضة، فقد تعرض لضروب المحن والآلام وعاش مع أبناء شعبه وأتباعه فترة عسيرة لم يتعرض العراق لمثلها من قبل، فهو ينظر إلى تدمير التراث الذي أرسىٰ قواعده الآف الصالحين والعلماء على مدىٰ قرون طويلة ويشاهد الدمار الذي حلّ بالمدن المقدسة. وينظر إلى عشرات الآلاف من الضحايا والمفقودين والمسجونين ولا يستطيع فعل شيء، فقد قضىٰ الأشهر المريرة سجين داره لا يعرف عن أفراد أسرته وتلاميذه ومريديه شيئاً.

وتم عزله عن العالم... وكانت صحته قد ساءت وتدهورت حالته الصحية حتىٰ سلم الأمانة وأسلم الروح إلى بارئها (رحمة الله عليه).



تشييع جثمانه الطاهر.

إن مرجعية السيد الخوئي كانت مرجعية أحاطتها المنغصات ولفت بها المحن والمآسي من كل مكان. . . وكانت سفينة هذه المرجعية تسير في بحر شديد متلاطم الأمواج ولكن قائدها وهو المشهور بالحنكة والذكاء المفرط كان يسير دفتها بحذر وحكمة رغم هذه الأمواج المتلاطمة والرياح العاتية العاصفة حتى أن الناظر من بعيد يُخيّل إليه أن السفينة بلا قيادة. .

ولكن الحقيقة هي أن القائد قد إختفىٰ عن الضوء ولكنه تمكن من تحقيق ما لم يستطع الكثيرون تحقيقه وعانىٰ ما لم يعانيه غيره فمضىٰ إلى جوار ربه قرير العين نظيف السريرة، فرحمة الله عليه.



من تشييع جثمانه الطاهر.

هوامش ومراجع الكتاب

١ ـ مذكرات سماحة الشيخ مفيد الفقيه أحد تلامذة الإمام الخوئي (قدس)

٢ ـ معجم رجال الحديث ج٢٢ ص١٧ ـ ٢١/ الإمام الخوئي (قدس)

٣ ـ المصدر السابق

٤ ـ المصدر السابق

٥ ـ المصدر السابق

٦ ـ المصدر السابق

٧ ـ البيان في تفسير القرآن الخوئي/ ص٥٦

٨ ـ اعجاز القرآن ص٤١

٩ ـ مقدمة تفسير البرهان ص٢٧

١٠ ـ تفسير الصافي المقدمة السادسة ص١١

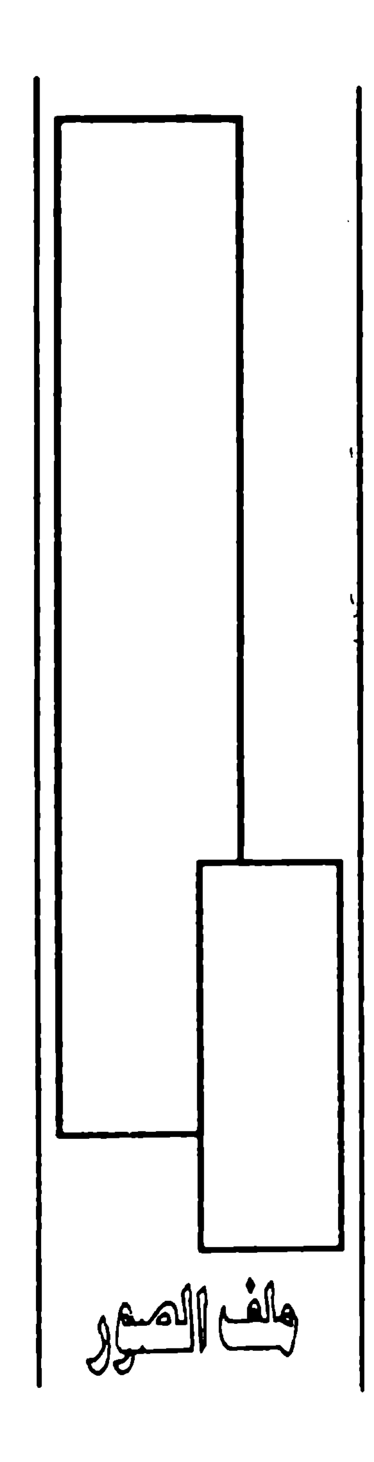
١١ ـ البيان في تفسير القرآن الخوئي ص٢١٨

١٢ ـ الناسخ والمنسوخ للنحاس ص٥٨

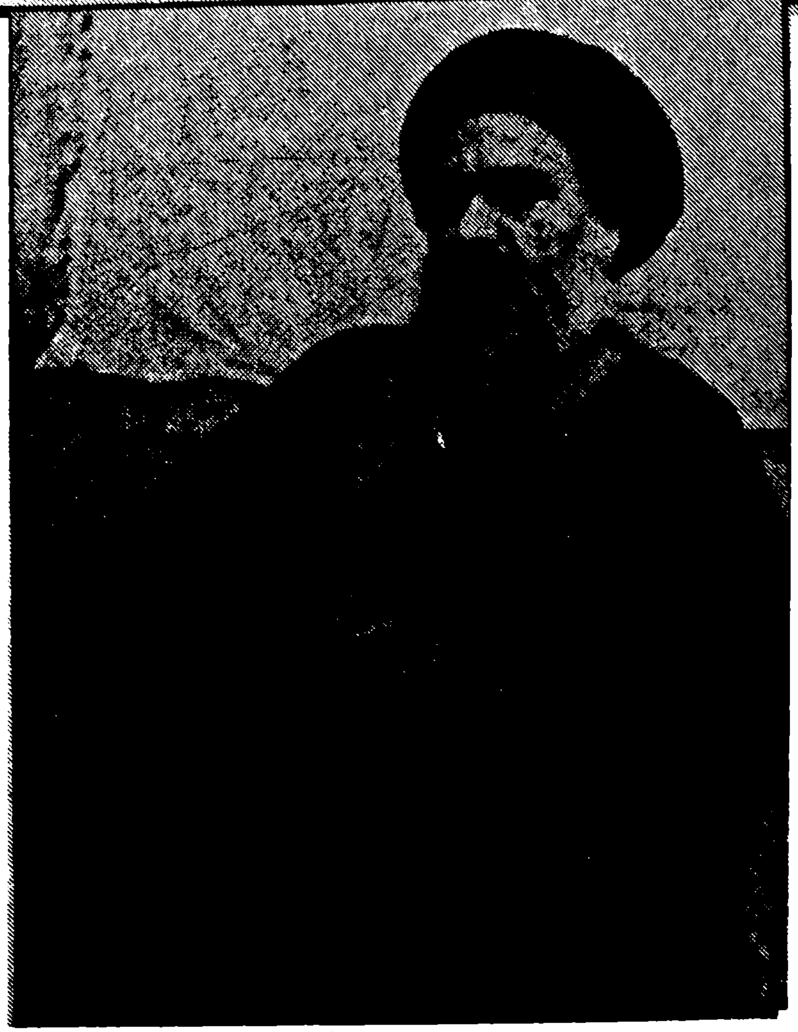
١٣ ـ البيان في تفسير القرآن الخوئي/ ص٤٢١

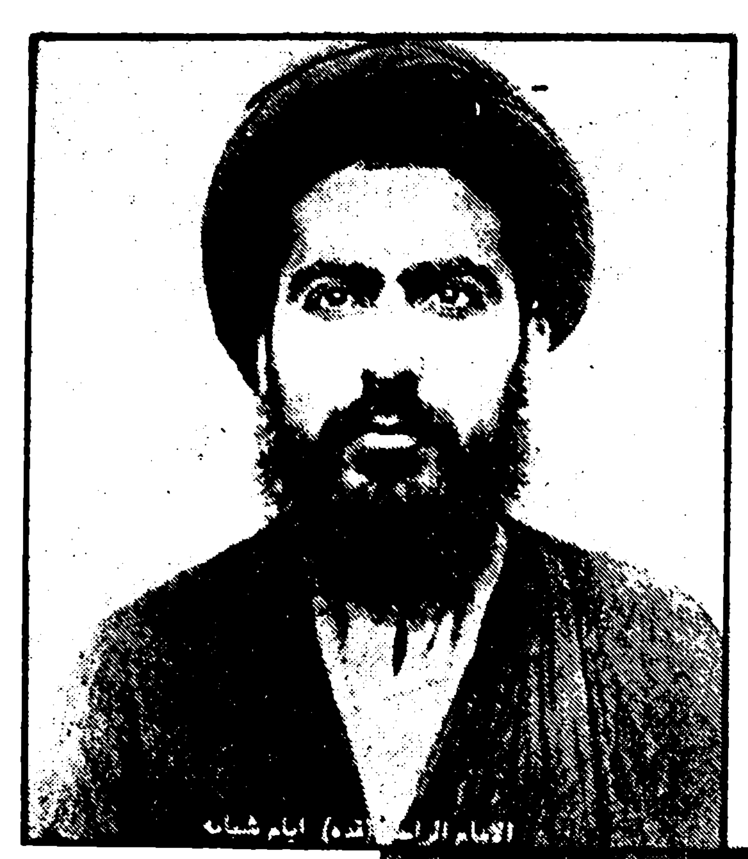
١٤ ـ نقلاً عن سماحة الشيخ حجة الإسلام محمد هادي اليوسفي

١٥ ـ الكامل لابن الأثير ج٨/ ص٣٣٤
١٦ ـ المصدر السابق
١٧ ـ النجف، جامعاتها، ودورها القيادي علي البهادلي
١٨ ـ مجلة الموسم العدد/ ٦
١٩ ـ أئمة أهل البيت(ع) الشهيد الصدر(رض)
٢٠ ـ المصدر السابق
٢١ ـ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية حسن الأمين/ ج٢/ ص٤١٤
٢٢ ـ ماضي النجف وحاضرها الشيخ محبوبة
٢٣ ـ موسوعة العتبات المقدسة قسم النجف جعفر الخليلي
٢٤ ـ أعيان الشيعة للأمين
٢٥ ـ مجلة الفكر/ الصادرة في لندن العدد الثاني/ ص٢٥٨ ـ ٢٥٩
٢٦ ـ مذكرات سماحة حجة الإسلام السيد محمد تقي الخوئي
٢٧ ـ مذكرات سماحة حجة الإسلام السيد عبد المجيد الخوئي
٢٨ ـ الحركة الإسلامية لشيعة العراق بالانكليزية/ لجويس وايلي.
٢٩ ـ المصدر السابق
٣١ ـ أخبار الثورة الإسلامية في العراق شهود عيان
٣٦ ـ صحيفة الاوبزرڤر البريطانية ٤ذي القعدة/ ١٤١١

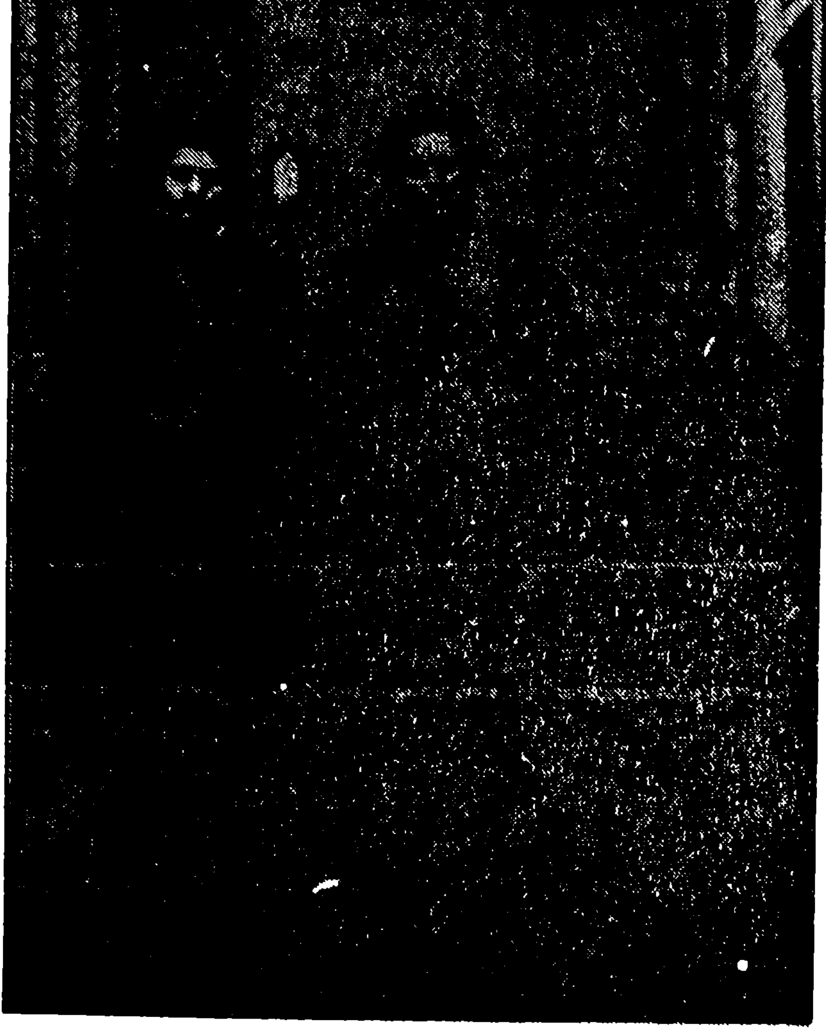

ملف الصور



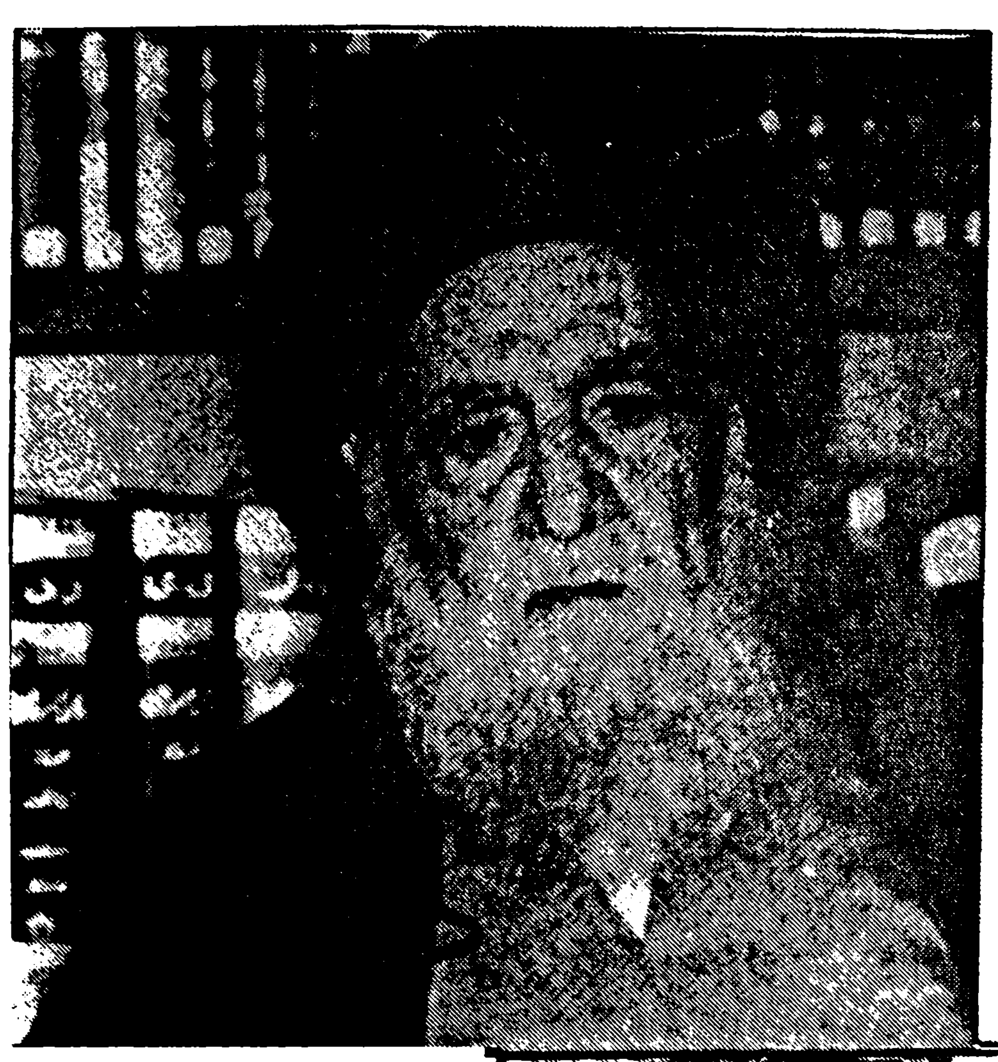


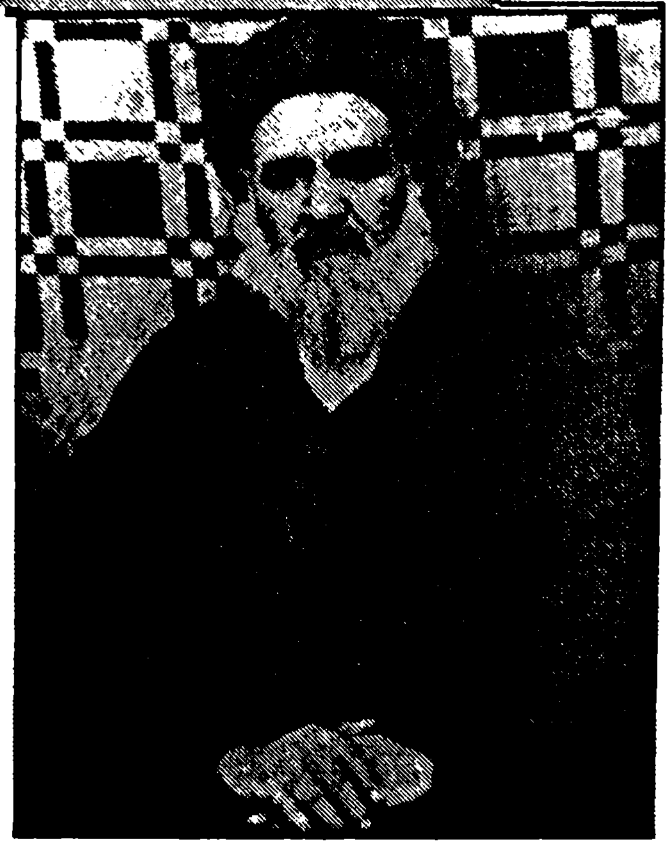


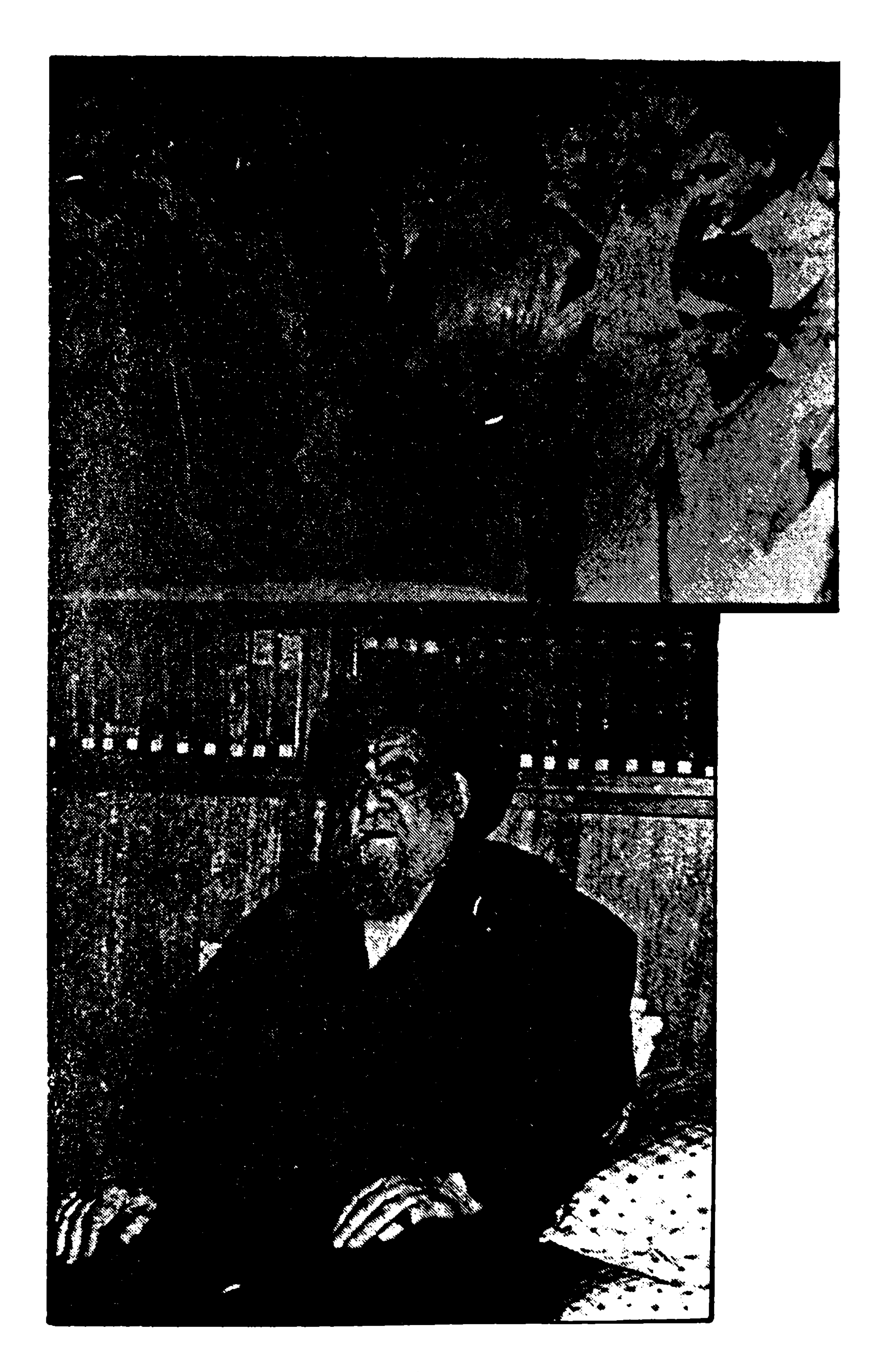
الامام الراحل (قده) ايام شبابه











الفهرس

الباب الرابع

الباب الخامس